

# الإمام الشافعية

جبانته وفقهه

بكر محمد إبراهيم



مركز الأبحاث للدراسات الإسلامية والثقافية

# منتدى سور الأزبكية

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)

# الإمام التتائفعى حياته... فقهه

إعداد  
بكر محمد إبراهيم

الناشر  
مركز الراية للنشر والإعلام

- مركز الراية هو دار نشر حرة مستقلة تتبنى قضايا جادة وهادفة
- وقد تم تأسيس هذا المركز من وحي إحساننا بدور الكلمة المطبوعة في التعبير عن قضايانا المصيرية، وكشف أوجه القصور، وتصحيح الأوضاع المقلوبة. أو المضاهيم الخاطئة، وإثراء حياتنا الفكرية والثقافية.
- ورغم أن المركز لا يزال في بداياته الأولى إلا أن حسن استقبال القارئ العربي من المحيط إلى الخليج لمطبوعاتنا جعلنا ندرك حجم المسؤولية الملقاة على عاتقنا. ونحاول قدر جهدنا تقديم كل جديد وجاد وهادف.

الناشر

أحمد فكرى

اسم الكتاب	الإمام الشافعى.. حياته.. فقهه
اسم المؤلف	بكر محمد إبراهيم
المراجعة اللغوية	المؤلف
رقم الإيداع	٢٠٠٥/٤٨٤٢
الترقيم الدولى	I.S.B.N. 977-354-078-2
جمع الكترونى	فورإتش م، ٦٦٧٤٣٣٥ / ١٠
فكرة الكتاب	أحمد فكرى
الإشراف العام	كريم أحمد فكرى

جميع الحقوق محفوظة لمركز الراية للنشر والإعلام ولايسمح بنشر أو إعادة نشر أى جزء من الكتاب بأى وسيلة من وسائل النشر.. دون الحصول على إذن كتابى من الناشر..

مركز الراية للنشر والإعلام

الطبعة الأولى

الإدارة والتوزيع : ٢٠ ميدان الحسين - مكتبة فكرى  
القاهرة - جمهورية مصر العربية  
ت : ٥٩٦٢١٩  
البريد الإلكتروني :

٢٠٠٧

e- mail: alraya 93 @ hotmail.Com

e- mail : alraya 93 @ Yahoo.Com

٠٠٢٠٢٧٨٧٠٩٠٦

فاكس

الإمام الشافعي  
حياته.. فقره

## كلمة الناشر

### هذا الكتاب

هذا الكتاب يتناول سيرة علم من أكابر أعلام الأئمة وعالم ملاً الأرض  
علماء وكان يتصف بالخلق الكريم والتواضع والشجاعة والصدق وعلو الهمة.  
فهو الإمام العالم القدوة القرشي الهاشمي ناصر السنة وقامع البدعة  
مبتكر علم أصول الفقة المحدث الفقيه اللغوي الشاعر التقى الورع.  
تتلمذ على يد جهايزة العلماء ولاسيما الإمام مالك ومن تلامذته الإمام  
أحمد.

أقام بالعراق ثم بمصر وبها مات ودفن وكان مولده على الأرجح بمدينة  
غزة وكانت أمه رحمها الله تشجعه على طلب العلم بعد وفاة أبيه وتآمر  
عليه المتآمرون وحسده الحساد وحيكت له الدسائس وترك لنا علماء واسعاً  
وكتبا قيمة وأشعاراً جليلاً رحمه الله رحمة واسعة.

الناشر

## المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله ﷺ .

الإمام الشافعي هو (مُحمَّد) بن إدريس الشافعي، يلتقي ﷺ مع سيدنا رسول الله ﷺ، ف عبد مناف وأم (الشافعي) هي (فَاطِمَة) بنت عبد الله الأزديَّة نسبةً إلى قبيلة الأزد التي قال في شأنها رسول الله ﷺ .

(الأزد أسدُ الله في الأرض، يُريدُ النَّاسُ أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم، وليأتين على النَّاسِ زمانٌ يقولُ الرَّجُلُ يا لَيْتني كنتُ أزدياً، وبأليت أُمِّي كانت أزديةً) ..

وُلدَ بـ (غزوةً سنة) (١٥٠هـ) - وهي السنة التي (توفى فيها الإمام أبو حنيفة) رضي الله عنهما، ثم حُملَ إلى (مكة المكرمة) وهو ابنُ ستين، فنشأ في أكنافها، وتفقه على خيرة علمائها، ثم قدم (المدينة المنورة) فلزم (الإمام ملكا) ﷺ، وقرأ عليه الموطأ حفظاً، وهو ابنُ ثلاث عشرة سنة، فأعجب الإمام (مالك) بقرائه وقال له: (اتق الله فإنه سيكون لك شأن)، ثم رحل إلى (اليمن) حين تولَّى عمه القضاء بها واشتهر بها، ثم رحل إلى (العراق)، وجدَّ في الاشتغال بالعلم، ونشر علم الحديث، ونصر السنة واستخراج الأحكام منها، ورجع كثيرٌ من العلماء عن مذاهب كانوا عليها إلى مذهبه، ثم خرج إلى (مصر) في أواخر سنة (١٩٩هـ) وصنَّف كُتُبَ الجديده بها، وتوافد النَّاسُ إليه من سائر الأقطار، قال الربيع بن سليمان: رأيتُ علَّ بابِ دارِ الإمامِ الشافعيُّ سبعمائة راحلةٍ تطلبُ سماعَ كُتُبِ ﷺ ..

وكان مع ذلك يقول: إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي، وكان يقول: وددتُ أني إذا

نَظَرْتُ أَحَدًا، أَنْ يُظْهِرَ اللَّهُ تَعَالَى الْحَقَّ عَلَى يَدَيْهِ، وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ فَعَلَيْهِ الْإِخْلَاصُ فِي الْعِلْمِ، وَكَانَ يَقُولُ: أَظْلَمُ الظَّالِمِينَ لِنَفْسِهِ مَنْ تَوَاضَعَ لِمَنْ لَا يُكْرِمُهُ، وَرَغِبَ فِي مَوَدَّةٍ مَنْ لَا يَنْفَعُهُ، وَقَبِلَ مَدْحَ مَنْ لَا يَعْرِفُهُ..

وَكَانَ يَقُولُ: مَنْ لَمْ تُعِزَّهُ التَّقْوَى فَلَا عِزَّ لَهُ، وَقَالَ فِي حَقِّ أَسْتَاذِهِ الْإِمَامِ (مَالِكِ):

(إِذَا ذُكِرَ الْعُلَمَاءُ فَمَالِكُ النَّجْمِ، وَمَا أَحَدٌ أَمِنُ عَلَى مَنْ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ).

وَقَالَ فِي حَقِّهِ الْإِمَامُ (أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ) رضي الله عنه:

(مَا أَحَدٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ حَمَلَ مَحْبِرَةً، إِلَّا وَلِلشَّافِعِيِّ عَلَيْهِ مَنَّةٌ).

وهكذا ضرب الأئمة الأربعة (وهم شيوخ الأمة الإسلامية) المثل الأعلى في المودة والتسامح ورفض العصبيّة والتزمت، وقد ثبت أنّ الإمام (الشافعي) عندما زار قبر الإمام الأعظم (أبي حنيفة النعمان) في (بغداد) وصلى هو وتلامذته صلاة الصبح بجوار القبر ترك (القنوت) وهو أساسي في مذهبه وهو (الدعاء المأثور بعد القيام من ركوع الركعة الثانية) وعندما سأله تلامذته: أطراً تغيير في مذهبك؟ قال رضي الله عنه بل هو إجلال وتقدير لمذهب من نحن في رحابه، يقصد الإمام (أبا حنيفة النعمان).

واقام الإمام الشافعي بـ (مصر) أربع سنين ونيفاً، انتشر فيها مذهبه، وعظم شأنه عند المصريين، وكثر تلاميذه، وكانت الدروس والعلوم التي يلقاها (الشافعي) على تلاميذه كثيرة متعددة، فقد كان (الشافعي) يجلس في حلقاته إذا صلى الفجر، فيأتيه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا، وجاء أهل الحديث فيسألونه تفسيره ومعناه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا، فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا، وجاء أهل العروض والنحو والشعر فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار.

وقد توفي رضي الله عنه بـ (مصر) ليلة الجمعة بعد المغرب سنة (٢٠٤ هـ)..

ويعتبر ضريح الإمام الشافعي أكبر الأضرحة في (مصر) على الإطلاق، وأقدم قبّة خشبيّة بـ (مصر)، إذ تبلغ مساحة الضريح (٤٠٠ متر تقريباً) وارتفاعه (٢٩ متراً)، ومن الطريف أنّ قبّة الإمام الشافعي يعلوها سفينة طولها ٢١/٢م، وهي ترمز على أنّ



الإمام الشافعيّ بحرُ العلوم والمعارف، ويَحْمِلُ سَفِينَةَ النِّجَاةِ لِلَّذِي يَتَزَوَّدُ مِنْ هَذِهِ الْعُلُومِ  
والمَعَارِفِ، وَرَحِمَ اللهُ الإِمَامَ (البُوصَيْرِي) الَّذِي وَصَفَهَا قَائِلًا:

بِقُبَّةِ قَبْرِ (الشَّافِعِيِّ) سَفِينَةٍ

رَسَتْ فِي بِنَاءِ مُحْكَمٍ فَوْقَ جَلْمُودِ

وَمَذْ غَاصَ طُوفَانُ الْعُلُومِ بِهِ (قَبْرِهِ) اسْتَوَى

الْفَلَكَ مِنْ ذَاكَ الضَّرِيحِ عَلَى الْجُرْدِيِّ

والحمد لله أولاً وآخراً.

المؤلف



# الفصل الأول الإمام الشافعي

أم الشافعي  
في مكة  
أقباله على التعليم  
منهج التعليم  
علم الرواية



## الامام الشافعى

الشافعى هو ابو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ابن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف .

فهو عربى قرشى هاشمى مطلبى يلتقى مع الرسول ﷺ فى الجد الأعلى عبد مناف . وكان يطلق عليه : ابن عم رسول الله ﷺ ولكننا يجب أن نتنبه إلى أن هاشما المذكور فى سلسلة نسب الشافعى ليس هو هاشم جد النبى ﷺ ولكنه هاشم بن المطلب بن عبد مناف - أما هاشم جد النبى ﷺ فهو هاشم ابن عبد مناف ، فهاشم جد النبى ﷺ هو عم هاشم جد الشافعى . والمطلب الوارد فى سلسلة نسب الشافعى هو شقيق هاشم جد النبى ﷺ .

وقد أورد الرواة قصة طريفة حول المطلب وهاشم ، وعبد المطلب بن هاشم جديرة بالتسجيل ، لتعرف فضل هذه الأسرة الهاشمية القرشية التى كان النبى ﷺ أركى فروعا وأشرف نتاجها .

كان لعبد مناف بن قصى أربعة أولاد ذكور وهم : المطلب بن عبد مناف وهو أكبر أولاده ، ولكل من هؤلاء الأربعة فضل على قریش .

فالمطلب هو الذى عقد الحلف لقریش من النجاشى فى تجارتها إلى أرضه وهاشم هو الذى عقد الحلف من هرقل قيصر الروم ، ونوفل هو الذى عقد الحلف لقریش من كسرى ملك الفرس .

وإلى هذه الأحلاف يشير الشاعر فى مدحهم :

وفى رواية أن المطلب كان يؤلف الرحلة إلى اليمن، وعبد شمس كان يؤلف الرحلة إلى الحبشة، وهاشم كان يؤلف الرحلة إلى الشام، ونوفل كان يؤلف الرحلة إلى فارس، وإلى هذه الرحلات تشير سورة قريش

وكان هؤلاء الأربعة قد ورثوا عن أبيهم مآثر الجود والكرم والقيام بأمر الحجاج الذين هم ضيوف الله تعالى، يقومون برفادتهم وإكرامهم وإطعامهم وسقيهم وبرهم.

وكان هاشم بن عبد مناف كثير الرحلات، وذهب إلى المدينة في إحدى رحلاته فتزوج سلمى بنت عمرو من بنى عدى بن النجار، وبنى بها ففى المدينة ثم مضى فى رحلته إلى غزة حيث مات بها.

وقد علقّت زوجته سلمى بولد، سمته شيبه، وبقي الولد عند أمه بالمدينة حتى شب، وأصبح غلاما. وإنما سمته شيبه لشيبه كانت برأسه ولد بها.

وقدم ثابت بن المنذر بن حرام، وهو أبو حسان بن ثابت شاعر الرسول ﷺ مكة معتمرا ذات عام، والتقى بصديقه المطلب بن عبد مناف سيد قومه إذ ذاك، فقال له: لو رأيت ابن أخيك «شيبه» فينا لرأيت جمالا وهيبة وشرفا، لقد نظرت إليه وهو يناضل فتيانا من أخواله، فيدخل مرماتيه<sup>(١)</sup> جميعا فى مثل راحتى هذه، ويقول كلما خسق<sup>(٢)</sup>: أنا ابن عمرو العلاء.

وعمره هو هاشم بن عبد مناف، وإنما سمي بهاشم، لأنه كان يهشم الخبز للحجيج ويصنع لهم الثريد يطعمهم به، وقد قال الشاعر فى ذلك يمدحه:

عمره العلاء هشم الثريد لقومه      ورجال مكة مستون عجاف<sup>(٣)</sup>

فقال المطلب: لا أمسى حتى أخرج إليه فأعود به.

فقال ثابت: ما أرى سلمى أمه ولا أخواله يدفعونه إليك، إنهم يظنون به وهو عزيز لديهم. وما عليك أن تدعه عند أخواله حتى يكون هو الذى يقدم عليك هاهنا

(١) مرماتيه: مثنى مرماة كمشحاة، وهى سهم صغير، أو سهم يتعلم به الرمي.

(٢) خسق: أصاب الرمي وغلب.

(٣) مستون: أصابتهم السنة وهى الجذب والقحط.

راغبا فيك؟؟

فقال المطلب: يا أبا أوس ما كنت لأدعه هناك ويترك مآثر قومه ونسبه وشرفه في قومه ما قد علمت.

وخرج المطلب من فوره إلى المدينة، وكان اسمها يثرب - فورد المدينة فنزل في ناحية، وجعل يسأل عن شيبة حتى وجده يرمى في فتيان من أخواله فلما رآه عرف شبه أبيه «هاشم» فيه ففاضت عيناه، وضمه إليه وكساه حلة يمانية وأنشأ يقول:

عرفت شيبة والنجار قد حلفت      أبناؤها حوله بالنبل تتفضل  
عرفت أجداده منا وشيمته      ففاض منى عليه وإبل سبل<sup>(١)</sup>

وحين سمعت سلمى «أم شيبة» بقدم المطلب أرسلت إليه، فدعته إلى النزول عليها.

فأرسل إليها يقول: شأنى أخف من ذلك، ما أريد أن أحل عقدة حتى أقبض ابن أخى ببلده وقومه.

فعر عليها ذلك، وشق عليها أن تفارق ابنها الذى تربى فى حجرها وتعودت ألا يغيب عن عينيها وهو لا يعرف سوى أخواله، فقالت: ما أنا بمرسلته معك، وغلظت عليه فى القول، شأن كل امرأة فى موقفها.

ولكن المطلب قال لها: لا تفعلنى، فإنى غير منصرف حتى أخرج به معى، ابن أخى قد بلغ، وهو غريب فى غير قومه، ونحن أهل بيت شرف فى قومنا، والمقام ببلده خير له من المقام هاهنا، وهو ابنك حيث كان.

وعلمت سلمى صدق منطقها، وأدركت أن ابنها لا بد أن ينال من شرف قومه الذى لا ينكره أحد من العرب، ومجدهم الذى يسير مسير الشمس، وعلمت مع ذلك أن المطلب غير مقصر فى طلب ابن أخيه ولا بد أن يبلغ ذلك والحق معه، فاستنظرت ثلاثا لتجهز ابنها فى سفرة مع عمه.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ١ / ١١٧ .

وقبل المطلب، وتحول إليهم فنزل عندهم فأقام ثلاثا. ثم احتمل «شيبية» وانطلقا جميعا وأنشأ يقول:

أبلغ بنى النجار إن جتتهم أنى منهم وابنهم والخميس

رايتهم قوماً إذا جثتهم هروا لقائى وأحبوا حيسى

وأردف المطلب ابن أخيه شيبية وراءه على راحلته ودخل به مكة ظهرا، فقالت قريش حين رأوا المطلب يردف خلفه غلاما: هذا عبد المطلب ظنوه أنه اشترى عبدا وأردفه وراءه.

فقال لهم المطلب: ويحكم هذا ابن أخى شيبية بن عمرو.

فلما رأوا شيبية وعرفوا أبيه فيه قالوا: إنه ابن عمرو حقا.

وغلب اللقب الذى أطلق على شيبية اسمه، فلم يعد يعرف إلا بعبد المطلب وظل المطلب قاذما بأمر الرفادة والسفاية وإكرام الحجيج، تلك المهمة التى كانت لهاشم قبله ومات وهو يقوم بها. وخرج المطلب إلى اليمن تاجر فمات بردمان وهو أحد المواضع فيها، فحزنت عليه قريش وكانت تلقبه بالفيز لسماحته وفضله، ورثاه مطرود بن كعب الخزاعى بقوله:

ثم اللجى الفضل والفياض مطلبيا واستخرطى بعد فيضات بجمعات

أمسى برممان عنا اليوم مغتريا يا لهف نفسى عليه بين أموات

وتولى عبد المطلب بعده السقاية والرفادة، وأقام لقومه ما كان أبأوه يقيمون لقومهم من أمرهم، وشرف عبد المطلب فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه وأحبه قومه وعظم خطره فيهم، وأكرمه الله بإكرامات أذاعت فضله وخلدت ذكره، فقد أعاد الله على يديه عين زمزم بعد أن كانت طمت وذهب أثرها وخفى خيرها، وولد خير البشر فيده وهو حى وهو الذى سماه محمدا عليه السلام ليكون محمودا فى الأرض كما هو محمود فى السماء. . وكفله عدة سنوات وكان يتوسم فيه الخير وأنه سوف يكون له شأن وأى شأن. . . إلى هذه الدوحة الباذخة ينتمى الشافعي - رحمته الله.



وقد غلب عليه نسبة إلى جده شافع، فأصبح يطلق عليه الشافعي.

وشافع هذا صحابي جليل، عرف به ابن الأثير في كتابه أسد الغابة، فقال عنه:

«شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هشام بن المطلب بن عبد مناف بن قصي القرشي المطلبى، جد الشافعي.

لقى النبي ﷺ وهو مترعرع، وقد أسلم أبوه السائب يوم بدر»<sup>(١)</sup>

وترجم ابن الأثير للسائب أيضاً فقال عنه:

«السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف، أبو شافع جد الشافعي، وأمه الشفاء بنت الأرقم بن نضلة بن هاشم بن عبد مناف وكان السائب يشبه النبي ﷺ.

روى الخطيب البغدادي عن القاضي أبي الطيب الطبري أنه قال أسلم السائب يعني بن عبيد جد الشافعي بعد يوم بدر، وكان صاحب راية بني هاشم، وأسر ثم فدى نفسه، فقيل له: لو أسلمت قبل أن تفدى نفسك.

فقال: ما كنت أحرم المؤمنين طعاماً لهم.

وهي قصة تدل على مثاليته. ويان فيه شئنة بني هاشم التي تدل على الوفاء والإيثار، وهو يدفع عن نفسه مع ذلك مظنة أن يكون قد أسلم فراراً من الفداء.

وقد كان بوسعه أن يعلن عن إسلامه فيفك أسره بدون فداء، ولكنه لم يفعل ذلك، ليكون إسلامه خالصاً من كل شائبة، نقياً من كل منقصة وكونه صاحب الراية يوم بدر يدل على شجاعته وإقدامه.

والسائب أبو شافع هو الذي يحقق للشافعي النسبة الهاشمية وأنه من أهل البيت، لأن أمه جدها هاشم بن عبد مناف، فهو مطلبى من جهة أبيه هاشمي من جهة أمه.

وكان بين بني هاشم وبني المطلب تألف وتحالف، فقد أوصى هاشم بن عبد مناف

(١) أسد الغابة ٢ / ٥٠١.

إلى أخيه المطلب بن عبد مناف فأصبح الأولاد يدا واحدة. كما أصبح بنو عبد شمس بن عبد مناف، وبنو نوفل بن عبد مناف يدا واحدة<sup>(١)</sup>.

## أم الشافعي

واختلفت الأقوال في أم الشافعي، وإن كانت قد اتفقت على أنها عربية. والاختلاف أنها إلى أي القبائل تنتمي.

يرى بعض العلماء أن أمه هي فاطمة بنت عبد الله المحصن بن الحسن المثنى ابن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ويرى بعضهم أنها بنت الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب.

وهو بذلك يكون هاشمي النسب من جهة أبيه وأمه، والذين يرون ذلك يقولون: لا نعلم هاشميا ولدته هاشمية إلا علي بن أبي طالب والشافعي.

وإن كان هذا القول مبالغاً فيه أو مجاوراً الحقيقة، لأن هناك من ولد لهاشميين كالخليفة الأمين، أبوه الرشيد هاشمي، وأمه زبيدة هاشمية.

إلا أن رواية أن أم الشافعي هاشمية رواية يعوزها التوثيق، والمشهور أن أمه تنتمي إلى قبيلة الأزد، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية، وقد روى النووي عند حديثه عن أم الشافعي أن الرسول ﷺ قال: «الأزد أسد الله في الأرض، يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا زان يرفعهم وليأتين على الناس زمان يقول الرجل: يا ليتني كنت أزديا، وياليت أمي كانت أزدية» كما روى حديثاً موقوفاً جاء فيه: الملك في قريش والقضاء في الانتصار والأذان في الحبشة، والأمانة في الأزد<sup>(٢)</sup>.

ولعل هذه الرواية الأخيرة هي الأصح، يشهد لها أن الشافعي حين قدم مصر رفض الإقامة إلا عند أخواله من الأزد.

وقد كانت هذه الأم على قدر من المعرفة والعلم ترك أثره في الولد، وكثيراً ما

(١) الطبقات الكبرى ١ / ١١٣ .

(٢) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٢ / ١٩٣ وقال: رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة وصححه وحسنه.

تكون نجابة الولد من أثر التوجيه السديد والرعاية المحمودة، والحكمة التي تقول: «وراء كل عظيم امرأة» تصدق على الأم التي تأخذ بيد ابنها إلى طريق النجاح والكمال.

وإن المرأة التي تحسن تربية أولادها جديرة بأن يكرمها التاريخ ويضعها في الإطار الصحيح، وقد اشتهرت نساء في تاريخ الإسلام كانت شهرتهن بسبب نجابة أبنائهن الذين تخرجوا على أيديهن وسلكوا مدارج الكمال على أعينهن وقديما كان يطلق على فاطمة بنت الخرشب أم الكملة، التي سئلت عن أولادها أيهم أفضل فقالت: هم كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها.

وحسن تربية الولد مهمة إسلامية، وهي مسئوليات المرأة التي ألهاها الإسلام على عاتقها حين جعلها راعية ومسئولة عن رعيته، وأوجب عليها حسن التبعل لزوجها، ومن حسن التبعل أن تكون أمينة على رعاية أولادها من زوجها، وقد ذهبت أسماء بنت يزيد الأشهلية إلى النبي ﷺ تقول له: يا رسول الله أنا وافدة النساء إليك، إن الله قد بعثك إلى الرجال والنساء كافة، فأمننا بك وبإهلك، وأنا معشر النساء محصورات مقصورات قواعد بيوتكم، ومقضى شهواتكم، وحاملات أولادكم، وإنكم معشر الرجال فضلتم علينا من ذلك الجهاد في سبيل الله - عز وجل - وإن الرجل إذا خرج حاجا أو معتمرا أو مجاهدا حفظنا لكم أموالكم، وغزلنا لكم أثوابكم، وربينا لكم أولادكم، فما نشارككم في هذا الأجر والخير؟

فالتفت النبي ﷺ إلى أصحابه بوجهه كله، ثم قال: «هل سمعتم مقالة امرأة قط أحسنت في مساءلتها في أمر دينها من هذه؟».

فقالوا: يا رسول الله، ما ظننا أن امرأة تهتدى إلى مثل هذا، فالتفت النبي ﷺ إليها فقال: «افهمي أيتها المرأة واعلمي من خلقك من النساء أن حسن تبعل المرأة لزوجها وطلبها مرضاته واتباعها موافقته يعدل ذلك كله» فانصرفت المرأة وهي تهلل<sup>(١)</sup>.

لقد وجه النبي ﷺ هذه المرأة إلى ما يجب أن تكون عليه المرأة من معرفة لحق زوجها، ومعرفة حق الزوج تكون بحسن الطاعة له، وحسن الرعاية لأولاده، وحسن

(١) أسد الغابة ٧ / ١٩.

التوجيه لهم وتربيتهم تربية حسنة.

وكانت أم الشافعي من أولئك النساء اللاتي انتفعن بهذا الحديث وطبقته تطبيقاً صادقاً.

لقد صدقت الإخلاص لزوجها وقنعت معه بالحياة على شظفها.

وكان الزوج رجلاً كادحاً يضرب في الإخلاص لزوجها وقنعت معه بالحياة على شظفها.

وكان الزوج رجلاً كادحاً يضرب في الأرض طلباً للرزق، فعلى الرغم من أن موطنه مكة إلا أنه كان يسعى في طلب الرزق في كل مكان تبدو فيه بارقة الأمل، وسعى إلى غزوة منتجعاً وسعت زوجته معه، وهناك رزقه الله بولده الشافعي، قريباً من مثوى الجد الأعلى هاشم بن عبد مناف.

ولقد اختلف الرواة حول ذلك أيضاً.

فقال بعضهم لم تكن الولادة في غزوة، بل كانت في عسقلان.

وقال بعضهم، بل كانت الولادة في اليمن.

ولكن الأرجح أنه ولد بغزوة ثم انتقل به إلى عسقلان، وكانت عسقلان غاصة بالقبائل اليمنية.

ولعل هذا من قبيل اللطف الذي يصاحب وقوع الأقدار، حتى قال الحكماء: من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذلك لقصور نظره.

وعلى أي فقد كانت أم الشافعي جديرة بأن تكون أمه، فقد نشأ الشافعي ولم يجد أمامه إلا هي، لقد مات أبوه صغيراً، وخشيت عليه أمه الضيعة فعادت إلى مكة.

وقد توسمت الأم في ابنها الخير والذكاء والفتنة، فأسلمته إلى المعلمين على الرغم من شظف الحياة وقسوة العيش.

وكانت هذه الأم على درجة لا بأس بها من العلم، في وقت كانت النساء ينلن

حظهن من الثقافة والفقهية، فالعصر قريب عهد بالنبوة والعلم يعرف طريقه إلى قلوب الرجال والنساء، وما يدل على أن هذه المرأة على صلة بالعلم ما يحدث به الرواة أنها طُلبت أمام قاضي مكة للإدلاء بشهادة مع امرأة أخرى، وأراد القاضي أن يفرق بينها وبين الشاهدة الأخرى فقالت له أم الشافعي: ليس هذا لك لأن الله تعالى يقول: ﴿أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾ (البقرة: ٢٨٢).

فرجع القاضي عن رأيه<sup>(١)</sup>.

عادت الأم بابنها إلى مكة محافظة على شرف نسبه القرشي، كان عمره سنتين حين عادت به. ولعل غربة الأسرة كانت قد طالت بعض الوقت في غزة التي استوطنها الوالد مؤقتا، لأن مورد رزقه كان بها. وقد انقطع المورد بوفاة الأب، فأصبح لا مناص أمام الأم من أن تعود إلى الموطن الأصلي «مكة لينشأ طفلها اليتيم بين أهله، وتعوضه بذلك عن فقد أبيه، حتى لا يجتمع عليه همان هم اليتيم وهم الغربة.

## في مكة

السلم التعليمي الإسلامي يبدأ بحفظ القرآن الكريم، وهو أنجح طريق سلك حتى الآن في التعلم.

وقد نجح آباؤنا في التعلم لأنهم حفظوا القرآن الكريم صغارا فيما كان يسمى بالكتاب، وعلى يد شيوخ متخصصين كانوا يحفظون القرآن الكريم بأحكامه وكانت المدارس المصرية قديما تعنى بذلك تماما حيث كان التلميذ في المدرسة الأولية - وسنواتها كانت أربعاً - يحفظ القرآن الكريم فيها، في كل سنة يحفظ ربع القرآن وقد حفظ الكثيرون القرآن الكريم في المدرسة الأولية في مدرسة القرية، وأنشأت وزارة المعارف نظاما اسمه قسم الحفاظ مهمته أن يشرف على تحفيظ التلاميذ القرآن الكريم في المدرسة بواسطة شيخ متخصص تعينه لذلك.

ولم يعق حفظ القرآن التلاميذ عن الدروس الأخرى، بل ربما كان معينا لهم على التفوق فيها، وقد خرجت المدارس الأولية القديمة كما خرج كتاب القرية عابرة حملوا

(١) الإمام الشافعي - عبد الحلیم الجندی ص ٢٨.

لواء التثقيف والتربية والتنوير فى بلادنا، وأى عظيم من عظماء الدولة فى تاريخنا المصرى فى أوائل القرن الحالى كان يدين فى لمحاحه لحفظه القرآن الكريم فى صغره.

ولقد اكتشف الاستعمار الذى أذل بلادنا أنه لا ينجح فى مهمته طالما القرآن الكريم جزءاً أصيلاً فى مناهج التعليم، فعمل على تعويق ذلك وإخراجه من مناهج التعليم، ومنذ ذلك الوقت وبدأ الزرع يذوى، والضعف يظهر واللسان يتعثر، والعقل يخمل.

إن تعود الطفل منذ نشأته على تلاوة القرآن الكريم يقوم لسانه ويقوى لغته، ويطبغه على الفصاحة وحسن الأداء فى التعبير، ويأخذ بيده إلى طرق السلامة والصواب، إلى جانب ما يناله بسبب ذلك من عظيم الثواب.

وأفضل وقت لحفظ القرآن الكريم هو وقت الصغر فالتعليم فى الصغر كالنقش على الحجر، والتعليم فى الكبر كالنقش على الماء، ومن خصائص القرآن الكريم أن الله تعالى يسر حفظه لمن أراد، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (القمر: ١٧).

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾

(مريم: ٩٧).

ولقد رأينا من حفظ القرآن الكريم وهو فى سن السابعة أو دونها أو فوقها بقليل وقد شاهدنا على شاشات «التلفزيون» أطفالاً صغاراً فى عمر الزهور انتزعوا إعجاب الناس واستولوا على ألبابهم بحفظهم القرآن الكريم ومراعاة أحكامه وهم فى سن السادسة أو السابعة، وقد منحوا جوائز عظيمة هم جديرون بها.

وكان الإمام الشافعي من بين أولئك الذين حفظوا القرآن مبكراً. فقليل قد حفظه فى السابعة من عمره، وقيل بل حفظه فى التاسعة، وقال بعضهم: بل حفظه فى الخامسة، وليس ذلك غريباً على الشافعي الذى امتاز بالفطنة والذكاء الخارق.

## إقباله على التعليم

وأقبل الشافعي على التعليم بهمة لا تعرف الكلل، ولكن التعليم يحتاج إلى ذات يد، فمن أين ثمن الألواح والأقلام والأوراق، وهو فقير ليس لديه شىء؟ ولكن الحاجة

تفتق الحيلة، لقد كان يذهب إلى الدواوين يستوهب من أهلها أوراقاً يكتب عليها، كما كان يلتقط الخزف وأكتاف الجمال، وكرب النخل وما يراه يصلح للكتابة عليه، ويحتفظ به، ويستعمله في الكتابة.

وحين كان في الكتاب، وقد عجز عن دفع أجرة القارئ الذي يقرأ عليه لجأ إلى مساعدة الفقيه في تعليم الصبيان، وبذلك وفر على نفسه الأجرة وضمن لنفسه الاستمرار في التعلم مجاناً، لقد اكتشف المحفظ موهبته وقدرته على الحفظ فوكل إليه مهمة المراجعة للأطفال وتحفيظهم، وبذلك نصب نفسه معيداً في جامعة أستاذه في وقت لم تكن هذه الوظيفة قد عرفت، وقد استحدثها الشافعي وهو في سن لم تصل إلى العاشرة بعد. فكيف يكون حين تتقدم به السن وتتسع أمامه الآمال ويقفز به الطموح إلى غايات لا يعلمها إلا الله؟؟

إن الشافعي ليحدث عن نفسه قائلاً: لقد حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين وخفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين.

لقد اتسعت آمال الشافعي وأدرك لذة العلم صغيراً ووضع الله في نفسه الاستعداد لذلك ووجد من أمه التشجيع عليه، وهيا الله الأسباب التي تكفل له النجاح في ذلك.

### نصيبه من اللعب

لقد شغف الشافعي بطلب العلم شغفا شديداً، ولكنه مع ذلك كثيره من الأطفال ممن هم في سنه لم ينس نصيبه من اللعب، إلا أن لعبه أيضاً كان جادا كان همه منصرفاً في ذلك إلى الرمي، وأجاد ذلك إجادة تامة، حتى قال: كانت نهمتي في شيئين - في الرمي وطلب العلم، فنلت من الرمي حتى كنت أصيب عشرة من عشرة.

والرمي من ألوان الرياضة التي نذب الشرع إليها وحث عليها، وقال النبي ﷺ في ذلك: «علموا أبناءكم السباحة والرماية، ونعم لهن المرأة المؤمنة بيتها المغزل، وإذا دعاك أبواك فأجب أمك»<sup>(١)</sup>. وروى عبد الرحيم الزهري عن عطاء أنه رأى جابر بن عبد الله وجابر بن عمير الأنصاريين يرتميان، فملا أحدهما فجلس، فقال له صاحبه:

(١) الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر ١ / ٣٣٤٩.

كسلت؟ قال: نعم، قال أحدهما للآخر: أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل شيء ليس من ذكر الله فهو لعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امرأته، وتأديب الرجل فرسه، ومشى الرجل بين الغرضين، وتعلم السباحة»<sup>(١)</sup>.

وكان الشافعي في إقباله على الرمي لا يبالي حر الشمس ولا قسوة الرمضاء التي تلهب الأقدام في مكة، يقف مع لداته من الصبيان يتضلون وهو يتضل معهم حتى يغلبهم ويفوز عليهم، والرياضة عادة تحتاج إلى غذاء جيد، وطعام مناسب، ولكن أئني ذلك والأسرة فقيرة والدخل محدود والأم لا مورد لها إلا دخل يسير من سهم ذوى القربى؟

لقد عرض هذا النصب الدائم في الدرس والرمي الشافعي للهزال والضعف، حتى لقد رآه متطبب فخشى عليه داء السل، إلا أن الله كان معه فنجاه وأخذ بيده، ووقاه شر المرض.

### منهج التعليم

منهج التعليم السائد في ذلك الوقت هو القرآن الكريم حفظاً وأحكاماً، ورواية الحديث، وقد أجاد الشافعي ذلك في وقت مبكر، فقد حفظ القرآن الكريم وشفع ذلك بحفظ الموطأ وهو كتاب الإمام مالك الذي وضعه في الحديث الشريف مبوياً على أبواب الفقه.

ولكن إلى جانب ذلك كان هناك إقبال منه على دروس اللغة والنحو، وكانت هناك حلقات في المسجد الحرام يتناول فيها الدارسون ذلك. إلا أن عناية الشافعي تجهدت إلى اللغة، ولم يشأ أن يتلقاها إلا على يد أربابها في البادية.

فليطلق إلى البادية — إذن — يتعلم الفصاحة، ويتلقى اللغة خالية من التحريف والتصحيف، وكان هذا أمراً مشاعاً منذ القدم، وطريقاً معروفاً ينتهجه الناس، حتى لقد سلكته أسرة النبي ﷺ معه حين أرسلته إلى البادية رضيعاً، وهناك في بادية بني سعد حيث كانت مرضعته حليلة السعدية — نشأ فدرج لسانه على الفصاحة الفطرية والبيان الناضر والمنطق الفصل، حتى وصفه الحصرى في كتابه زهر الآداب بقوله: كلام الرسول ﷺ هو النهاية في البيان والغاية في البرهان، المشتغل على جامع الكلم وبدائع الحكم، وقد قال رسول الله ﷺ: «أنا أفصح العرب بيد أئني من قریش

(١) النبي ﷺ في مرآة أصحابه لعبد الحفيظ فرغلي ص ٢١٦.



واسترضعت فى بنى سعد ابن بكر، وليس بعض كلامه بأولى من بعض بالاختيار ولا أحق بالتقديم والإيثار.

وكان الخلفاء والوجهاء من الناس يلحقون أولادهم بالبادية لتصح ألسنتهم وقد فعل ذلك عبد الملك بن مروان بأولاده، ولكنه كان يؤثر الوليد بمزيد من الحب فأبقاه بجانبه فأثر ذلك فى لسانه، ومال به إلى بعض اللحن، ولذلك قال عبد الملك: أضر حينا للوليد به.

انطلق الشافعى إلى البادية ليتلقى اللغة على أربابها، كما كان يفعل كثير من العلماء فى ذلك الوقت كالأصمعى وحماد الراوية وأبى عمرو بن العلاء وغيرهم، وقد نشأ بسبب ذلك علم يسمى بعلم الرواية.

## علم الرواية

وينقسم علم الرواية إلى رواية الحديث ورواية الأدب واللغة، والذى يعيننا هنا هو القسم الثانى الذى اهتم به الشافعى.

وكان العرب منذ الجاهلية يروون أشعارهم وأخبارهم وكان لكل شاعر منهم رواية ينقل للناس شعره ويذيعه فيهم، ولما جاء الإسلام، كما يقول الأستاذ محمود مصطفى فى كتابه الأدب العربى وتاريخه - واحتاج العرب إلى رواية أخبار الجاهلية وأشعار شعرائها وفعلوا ذلك لذكرى أيامهم السالفة، وللمباهاة بأعمال آبائهم الأمجاد، ولاحتياجهم إلى الشعر فى تفهم القرآن الكريم وحديث رسول الله ﷺ - نشأت للأدب رواية ولكنها تختلف عن رواية الحديث بأنها لم يشترط فيها الإسناد والعنونة، إذ لم يكن الأدب فى أول أمره مجالاً للكذب لغلبة الورع على الناس، ولأن مرجع اللغة إلى القياس وهو لا يختلف.

فمن أجل ذلك لم يكن لرواية الأدب إسناد، ثم لما جرى على الأدب فيما بعد ما دعا إلى الاحتياط فيه حدث فيه الإسناد، وذلك حين ضعفت اللغة فى عرب الأمصار، فاحتاج الناس إلى نقلها عن عرب البادية، ثم حين فسدت الذمم فصار التقول سهلاً

على مستطيعه، فكثرت الاصطناع في الشعر ونحله، فنشأت إذ ذاك أول طبقة من رواة الأدب أمثال أبي عمرو بن العلاء وحماد، ولذلك ترى سند الرواية في الأدب ينقطع إليهم وإلى أهل طبقتهم، ولا ترى خبراً أو شعراً متصل السند إلى جاهلي إلا ما كان من حديث رؤية بن العجاج الراجز، فقد سئل عن معنى قول امرئ القيس:

نظعنهم سلكى ومخلوجة كرك لأمين على نابل<sup>(١)</sup>

فقال: حدثني أبي عن أبيه قال: حدثتني عمتي وكانت من بنى دارم قالت: سألت امرأ القيس وهو يشرب طلى مع علقمة بن عبدة: ما معنى قولك: كرك لأمين على نابل؟ قال: مررت بنابل وصاحبه يتاوله، فما رأيت أسرع من ذلك.

وحدث حماد قال: كان للكميت المتوفى سنة ١٢٦ هـ جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس فيها، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فتخبرانه عنه، قال حماد: فمن هنا كان علمه.

وكثرت الرحلة إلى البادية لنقل اللغة ورواية الشعر ونوادير العرب، وأقدم من رحل إليها يونس بن حبيب المتوفى سنة ١٨٣ هـ، وخلف الأحمر المتوفى سنة ١٧٥ هـ وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ وأبو يزيد الأنصاري المتوفى سنة ٢١٥ هـ والأصمعي المتوفى سنة ٢٧ هـ.

ونستطيع أن نضيف إلى هؤلاء الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢٠٤ هـ، ولكن شهرته في الفقه غلبت شهرته في رواية اللغة، ذلك أن هؤلاء الذين ذكرناهم انقطعوا لرواية الأدب ووقفوا أنفسهم عليه، أما الشافعي فقد عدل عن ذلك حين أحس أنه أخذ من ذلك ما يكفي، ورأى أن غير ما يطلبه أحق بالطلب مما هو فيه.

وما زال العلماء يرحلون إلى البادية في طلب اللغة حتى فسدت لغتها ولانت جلود أهلها.

(١) يعنى نظعنهم طعننا يذهب منهم ويرجع كما ترد سهمين على رام بهما، والسلكى: الطعنة المستقيمة، والمخلوجة: الطعنة المتجهة يميناً أو يساراً، اللسان.

والعلماء يذكرون أن الشافعي انقطع في البداية ليأخذ لغة هذيل، وكانت هذيل معروفة بالفصاحة والبلاغة، ولديها شعراء أنضجهم الشعر، وانساب على ألسنتهم كما ينساب الماء الرقراق يروى الظمأ ويذهب الصدى. وقد اعتنى الأدباء بنشر شعر الهذليين فجمعوه في ديوان كبير توفروا على تحقيقه وطبعه، وجمع صاحب الأغاني طائفة كبيرة من هذا الشعر، وعلق عليه بما هو معروف عنه من خفة الروح والاستطراد الأدبي الذي يشير إلى اتساع المعرفة وكثرة الثقافة.

ولعله لا يكون من نافلة القول أن نستشهد في حديثنا عن الشافعي الذي عنى بشعر هذيل ببعض ذلك، ليكون زادا للأديب، وعونا للأريب.

من أخبار أبي صخر الهذلي وشعره

وأبو صخر الهذلي هو عبد الله بن سلم السهمي، أحد شعراء هذيل، شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية وكان مواليا لبني مروان، وله في عبد الملك وأخيه عبد العزيز مدائح.

قال أبو الفرج: لما ظهر عبد الله بن الزبير بالحجاز، وغلب عليها بعد موت يزيد بن معاوية، دخل عليه أبو صخر الهذلي في وفد من هذيل وقد جاءوا ليقبضوا عطاءهم وكان ابن الزبير عارفا بهواه في بنى أمية فمنعه عطاءه.

فقال أبو صخر: علام تمنعني حقا لي، وأنا امرؤ مسلم، ما أحدثت في الإسلام حدثا، ولا أخرجت من طاعة يدا؟

قال ابن الزبير: عليك بنى أمية فاطلب عندهم عطاءك.

قال: إذا أجدهم سباطاً أكفهم، سماحا أنفسهم، بذلاء لأموالهم، وهابين لمجتهدتهم، كريمة أعرافهم، شريفة أصولهم، زاكية فروعهم، قريبا من رسول الله ﷺ نسبهم وسبيهم، ليسوا إذا نسبوا بأذنان ولا أتباع ولا هم في قریش كفقعة القاع، لهم السؤدد في الجاهلية والملك في الإسلام، لا كمن لا يعد في غيرها ولا نغيرها، ولا حكم آباؤه في نغيرها وقطميرها، ليس من أحلافها المطيبين، ولا من

ساداتها المطعمين، ولا من جوداتها الوهابين، ولا من هاشمها المنتخبين ولا عبد شمسها المسودين، وكيف نقابل الرؤوس بالأذنان؟

وأين النصل من الجفن، والسنان من الزج، والذنان من القدامى؟ وكيف يفضل الشحيح على الجواد، والسوقى على الملك، والحامع بخلاً على المطعم فضلاً؟

فغضب ابن الزبير حتى ارتعدت فرائضه، وعرق جبينه، واهتز من قرنه إلى قدمه، وامتقع لونه، ثم قال له: أما والله لولا الحرمات الثلاث: حرمة الإسلام، وحرمة الحرم، وحرمة الشهر الحرام لأخذت الذى فيه عينك، ثم أمر به إلى سجن عارم، فجس به مدة، ثم استوهبته هذيل ومن له من قريش خثولة فى هذيل، فأطلقه بعد سنة، وأقسم ألا يعطيه عطاء مع المسلمين أبداً.

فلما قتل عبد الله بن الزبير، وانتظم الشمل لعبد الملك، وحج لقيه أبو صخر فلما رآه عبد الملك قربه وأدناه، وقال له: لم يخف على خبرك، ولا ضاع لك عندى هواك ولا مولاتك.

فأنشده أبو صخر قصيدة نذكر منها:

فأقصر فلا ما قد مضى لك راجع ولا لذة الدنيا يدوم دوامها

وقد أمير المؤمنين الذى رمى بجأواً<sup>(١)</sup> جمهور تمور إكامها

من أرض قرى الزيتون - مكة<sup>(٢)</sup> غلبنا عليها واستحل حرامها

وأحد فيها الفاسقون وأفسدوا فخافت فواشيها<sup>(٣)</sup> وطار حمامها

ولرقة الغزل الذى فيها ينازعه كثير من الشعراء، حتى لقد نسب منها أبيات لغير

شاعر من شعراء الغزل.

(١) كنية جأوا: كدراء اللون فى حرمة، والاكام جمع أكم والأكم جمع أكمة. والأكمة مجتمع الرمل.

(٢) مكة: مفعول به لرمى فى البيت السابق.

(٣) الفواشى جمع فاشية ويقصد به الغنم السائمة والإبل.

## من شعر عبيد الله بن عتبة وأخباره

وعبيد الله بن عتبة الفقهاء المشهورين بالمدينة، والذي قال فى حقه عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - مرة: لو كان عبيد الله بن عبد الله حيا ما صدرت إلا عن رأيه، ولوددت أن لى بيوم من عبيد الله غرما، قال ذلك فى خلافته.

ولكن عمر بن عبد العزيز كان يلتقى به كثيرا أيام أن كان أميرا بالمدينة.

وهو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلى حفيد شقيق عبد الله ابن مسعود صاحب رسول الله صلوات الله عليه.

وهو أحد السبعة الذين كان يروى عنهم الفقه والحديث والفتوى فى المدينة وهم: القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسعيد بن المسيب، وخارجة بن زيد بن ثابت وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عتبة - وكان عبيد الله ضريرا.

كان عبيد الله - على فقهه وورعه - شاعرا - ومن الأخبار التى ذكرها أبو الفرج فى أغانيه حول شعره ما يقوله:

دخل عروة بن الزبير وعبيد الله بن عبد الله على عمر بن عبد العزيز وهو أمير المدينة فقال عروة حدث من ذكر عائشة وعبيد الله بن الزبير سمعت عائشة تقول: ما أحببت أحدا حبى عبد الله بن الزبير - لا أعنى رسول الله صلوات الله عليه ولا أبوى.

فقال عمر: إنكم لتتحلون عائشة لابن الزبير انتحال من لا يرى لكل مسلم معه فيها نصيبا. فقال عروة: بركة عائشة كانت أوسع من الأرى لكل مسلم فيها حق، ولقد كان عبد الله منها بحيث وضعتة الرحم والمودة التى لا يشرك كل واحدة منهما فيه عند صاحبه أحد.

فقال عمر: كذبت.

فقال عروة: هذا عبيد الله يعلم أنى غير كاذب، وأن من أكذب الكاذبين من كذب الصادقين.

وكانت هذه فلة من عمر، ولكنها كانت قبل أن يتبوا عرش الخلافة، أيام أن كان مزهوا بنفسه، مفتوناً بشبابه وحسبه.

فسكت عبيد الله ولم يدخل بينهما في شيء، فأفف بهما عمر، وقال: اخرجنا عنى، ثم لم يلبث أن بعث إلى عبيد الله رسولا يدعو لبعض ما كان يدعو إليه، فكتب إليه عبيد الله.

لعمر ابن ليلى وابن عائشة التى لمروان أدته أب غير رمل<sup>(١)</sup>  
لو أنهم عما وجدا ووالدا تأسوا فسنوا سنة المتعطل  
عدرت أبا حفص وإن كان واحدا من القوم يهدى هديهم ليس يأتلى<sup>(٢)</sup>  
ولكنهم فاتوا وجذت مصليا<sup>(٣)</sup> تقرب إثر السابق المتمهل  
وعمت فإن تسبق فضنء<sup>(٤)</sup> مبرر جواد وإن تسبق فنفسك فأعلل

### ومن شعر أبى ذؤيب الهذلى وأخباره

وأبو ذؤيب هو خويلد بن محرث بن مخزوم، عاش جاهليته وصدرأ من إسلامه بالبادية، وقد أسلم ولم ير النبي ﷺ، حتى سمع أنه عليل، فقدم المدينة وقد مات رسول الله ﷺ وحضر أبو ذؤيب مبايعة أبى بكر فى السقيفة، ثم شهد الصلاة على النبي ﷺ ودفنه، ثم عاد إلى قومه، ولبث بالبادية حتى خلافة عمر، فقدم عليه ورغب فى الجهاد وكانت له خمسة أبناء هاجروا، وأصيبوا فى عام واحد بالطاعون فماتوا، فرثاهم بقصيدة راذعة ما تزال تروى.

كان فصيحاً، كثير الغريب للزومه البادية، وقصيدته العينية فى بنيه تشهد بذلك، قيل: إن المنصور مات له ابن اسمه جعفر، فلما انصرف من دفنه قال للربيع: ابغنى من

(١) زمل: ضعيف مقصر.

(٢) يأتلى: يقصر.

(٣) مصليا: الذى يلى السابق.

(٤) ضنى: ولد.

أهلى من ينشدنى قصيدة أبى ذؤيب، حتى أتسلى عن مصيبتى، فلم يجد الربيع فيهم أحداً يحفظها، فعاد إليه يخبره، فقال: والله لمصيبتى بأهل بيتى لا يكون فيهم أحد يحفظ هذه القصيدة لقلة رغبتهم فى الأدب أعظم من مصيبتى فى بنى، ثم قال: انظر، هل فى القواد أو العوام من يحفظها؟ فوجد شيخاً مؤدباً يحفظها، فجاء به، فلما قال:

### والدهر ليس بمعتب من يجزع

قال المنصور: صدق والله، أنشدنى هذا الشطر مائة مرة.

ومن هذه القصيدة:

أمن المنون وربها تتوجع	والدهر ليس بمعتب من يجزع؟
قالت أميمة ما لجسمك شاجباً	مئذ ابتذلت، ومثل مالك ينفع
أم ما لجنبك لا يلائم موضعاً	إلا أقض عليه ذاك المضجع
فأجبتها أن ما لجسمى أنه	أودى بنى من البلاد فودّعوا
أودى بنى فأعقبونى حسرة	بعد الرقاد، وعبرة ما تقلع
سبقوا هوى وأعقبوا لهواهم	فتخرموا ولكل جنب
فغفرت بعيش ناصب	وأحال أنى لاحق مستتبع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم	وإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها	ألفيت كل تميمة لا تنفع <sup>(١)</sup>

إن أبيات هذه القصيدة التى بلغت ثمانية وستين بيتاً تشهد بفصاحة هذا الشاعر وعمق فكرته وصادق حكمته، ولقد أصبحت هذه الأبيات يتمثل بها فى معرض الأحداث والمناسبات المتشابهة، يقال: إن ابن عباس رضي الله عنه دخل على معاوية وكان مريضاً، فقال

(١) الأدب العربى وتاريخه، لحمود مصطفى / ١٠٣١.

معاوية لمن حوله: أجلسوني، ليظهر التجلد أمامه.. ثم تمثل معاوية قائلاً:

وتجملدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعض

فرد عليه ابن عباس قائلاً:

وإذا المنية أنشبت أظفارها الفيت كل نائمة لا تنفع

والبيتان من قصيدة أبي ذؤيب الهذلي..

شعر الهذليين في غاية البلاغة والفصاحة وسلامة اللغة ونضارتها، فليس عجباً أن يطلب الشافعي هذا الشعر، ويحفظه حتى أصبح حجة فيه.

لقد حدث الرواة أن الشافعي مكث سبعة عشر عاماً يطلب شعر الهذليين، صاحبهم في باديتهم يقيم بإقامتهم ويرحل برحيلهم.

وربما كان هذا القول مبالغاً فيه لأنه يتعارض مع قول من يقول إنه أفتى وعمره أربعة عشر عاماً، فعلى فرض أنه رحل إلى البادية بعد حفظه القرآن وسنه سبع سنوات تكون سنه بعد انتهاء رحلته إلى البادية إحدى وعشرين عاماً، فمتى رحل إلى المدينة؟ ومتى حفظ الموطأ؟ وكيف قابل مالك؟

ولا يستقيم الأمر إلا على أن رحيله لبادية هذيل لم يكن متواصلاً، ولكنه كان يذهب ويعود ويرحل ويقيم، ولكنه لا يقيم إقامة دائمة.

ومع ذلك فقد حفظ شعر الهذليين حتى أصبح حجة فيه إلى درجة أن أستاذ الرواية الأصمعي صحح هذا الشعر عليه.

### من هو الأصمعي؟

والأصمعي هو عبد الملك بن قريب - واسم قريب عاصم - وأبوه علي بن أصمع بن مظهر بن رباح الباهلي، ونسب الأصمعي إلى جده أصمع كما هو واضح. نشأ في البصرة، وقدم بغداد في أيام الرشيد. وعاد إلى البصرة بعد وفاته، وحاول المأمون استقدامه إلى بغداد فاعتذر إليه بالضعف والشيخوخة.



امتاز الأصمعي بالحفاظة القوية النادرة، يدل على ذلك أن الحسن بن سهل الوزير حين قدم العراق أراد أن يجمع حوله بعض رجال الأدب. فأحضر أبا عبيدة معمر بن المثني، والأصمعي، ونصر بن علي الجهضمي، فابتدأ الحسن فنظر في رقايع كانت بين يديه للناس فوقع عليها وكانت خمسين، ثم أمر فرفعت إلى الخازن، ثم أفاضوا في ذكر الحفظ، وذكروا جماعة من السلف اشتهروا به، فالتفت أبو عبيدة وقال: ما الغرض أيها الأمير من ذكر من مضى وهاننا من يقول إنه ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود إليه، ولا دخل قلبه شيء وخرج منه؟.

فالتفت الأصمعي وقال: إنما يريدني بهذا القول، والأمر في ذلك على ما حكى وأنا أقرب إليه. قد نظر الأمير في خمسين رقعة، وأنا أعيد ما فيها وما وقع به عليها رقعة رقعة، فأحضرت الرقايع. فقال الأصمعي: سأل صاحب الرقعة الأولى كذا، ووقع له بكذا، ثم مر في نيف وأربعين رقعة، فالتفت إليه نصر الجهضمي وقال: أيها الرجل، أتبع على نفسك من العين، فكف الأصمعي.

وكان الأصمعي يقول: أحفظ عشرة آلاف أرجوزة، وكان الرشيد يسميه بشيطان الشعر. وامتاز الأصمعي كذلك بطلاوة الحديث وحلاوة التعبير، وهذا الذي حبب الخلفاء والأمراء فيه.

قال عنه الإمام الشافعي: ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي. كذلك كان صادقاً في حديثه مأمون الرواية لمكانه من خشية الله وتقائه. كان الإمام الشافعي يثنى عليه ويقول عنه: ما رأيت بهذا العسكر أصدق من الأصمعي. وكذلك كان الإمام أحمد بن حنبل يثنى عليه ويقول عنه: إنه ثقة.

وقد برع الأصمعي في علوم شتى منها النحو واللغة والغريب والشعر، وله شيوخ كثيرون أخذ عنهم، أخذ عن عبد الله بن عون، وشعبة بن الحجاج، وحماد بن سلمة، وحماد بن دريد، والخليل بن أحمد.

وأخذ عنه كثير من العلماء وله مؤلفات كثيرة منها:

❖ الأصمعيات، وهي مجموع مختارات من الشعر.

❖ رجز العجاج.

❖ أسماء الوحوش.

❖ كتاب الإبل.

❖ كتاب الخيل.

❖ كتاب خلق الإنسان.

❖ كتاب الشاء، وغيرها.

وتوفى الأصمعي سنة ثلاث عشرة وماذتين، ورثاه أبو العتاهية بقوله:

اسقفت لفقْد الأصمعي، لقد مضى حميداً له في كل صالحة سهم  
تقضت بشاشات المجالس بعده وودعنا إذ ودع الأئس والعلم  
وقد كان لمحج العلم فينا حياته فلما انقضت أيامه أقل النجم<sup>(١)</sup>

### لماذا شعر هذيل؟

واعتنى الشافعي بشعر هذيل لفصاحتهم وقرب باديتهم، وكان الرواة الذين يرغبون في الفصيح لا يأخذون من أي أعراب، بل كانوا يقصدون أعراباً بعينهم اشتهروا بين العرب بالفصاحة وخلوص النسب. ومن صحت عربيتهم قبائل قيس وغميم وأسد وهذيل وبعض كنانة وبعض طيئ ولم يأخذوا عن لخم ولا جذام لمجاورتهم أهل مصر، ولا عن قضاة وغسان لحلولهم بالشام، ولا عن بكر لمجاورتهم الفرس، ولا عن عبد القيس والأزد وعمان لمخالطتهم الهند والفرس بالحرين، ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن، ولا من أهل الحجاز لأنهم كانوا أسبق العرب إلى المخالطة فإن ألسنتهم كانت قد فسدت حين بدأ الرواة ينقلون اللغة<sup>(٢)</sup>.

(١) اراجع ترجمته في وفيات الاعيان ج ١، الفهرست لابن النديم، الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى ج ٢.

(٢) الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى / ١ / ٣٦٢

فكان الشافعى حسن الاختيار فى تلقيه اللغة حين قصد هذيلًا، وانقطع إليهم فترة من حياته حتى حفظ شعرهم وأجاد لغتهم، وانتفع بفصاحتهم حتى أصبح حجة فى ذلك. ولم يكتف بذلك، بل حفظ كثيرا من الشعر الجيد الذى اشتهر أصحابه بالفصاحة كالشنفرى الذى سنعرّف به بعد، وقد أعان الشافعى فى مهمته أرومته العربية، وفطرته الصافية، وذكاؤه وقوة حفظه. وهذه من أهم مقومات الرواية.

## الشافعى أستاذ الأصمعى

ومن العجيب أن يكون هذا الأستاذ الجليل البارِع فى فنه قد تلقى على الشافعى اخص شيء تخصص فيه.

يقول الدكتور عبد المنعم خفاجى: كان للإمام الشافعى منزلة كبيرة فى الشعر وروايته، بدأت صلته به منذ شبابه، ومازال يجول فيه حتى بعد أن انصرف إلى فقهه، وصار فى مكتبته أن يرتجل فى المعنى الذى يريده بيتا أو بيتين أو ثلاثا.

وقد جمع الشافعى فى أول دراساته شعر الهذليين واختص به، وشعرهم كان جاهليا وإسلاميا فصيحًا، تناولوا فيه الحماسة والفضائل والحكمة، ولعل الشافعى أعجب بشعر هؤلاء لنشأته فى قبائلهم ورضاه عن طباعهم، ولأن هذيلًا كما يقول الشافعى نفسه. أفصح العرب.

وروى الشافعى شعر الشنفرى، وكان كثيرا ما يتمثل بأشعار الطفيل الغنوى كما أورد ابن أبى حاتم فى كتابه آداب الشافعى ومناقبه.

ويقول الشافعى فى حديثه عن مبدأ أمره: خرجت عن مكة فلزمت هذيلًا فى البادية أتعلّم كلامها وأخذ طبعها وكانت أفصح العرب، قال: فبقيت سبع عشرة سنة أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلما رجعت إلى مكة أخذت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب وحدث الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير أنه خرج إلى اليمن فلقى محمد بن إدريس الشافعى وهو مجتهد فى طلب الشعر والنحو والحديث.

واتصل الأصمعي بالشافعي يأخذ عنه شعر الشنفرى وشعر هذيل ويتعلم منه روايته وشرحه وفصيحه وغريبه. روى أبو عثمان المازنى قال: سمعت الأصمعي يقول: قرأت شعر الشنفرى على الشافعي بمكة.

وحكى الحسين بن أحمد البيهقي الفقيه ببغداد قال: سمعت حسان بن محمد يحكى عن الأصمعي أنه قال: صححت أشعار هذيل على فتى من قریش يقال له محمد بن إدريس الشافعي، قال: وحكى لنا عن مصعب الزبيرى قال: كان أبى والشافعي يتناشدان، فأتى الشافعي على شعر هذيل حفظاً.

ويقول الدكتور عبد الجبار الجومرد فى كتابه «الأصمعي» عن المزهري للسيوطي: إنه درس ديوان شعر الشاعر الجاهلي الشنفرى وشعر بنى هذيل فى مكة على الإمام محمد بن إدريس صاحب المذهب الشافعي، ثم قال: والظاهر أنه درس ذلك فى أواخر أيامه وهو من فى حين أن أستاذه كان أصغر منه سناً<sup>(١)</sup>.

### من هو الشنفرى<sup>(٢)</sup>؟

وإذا كان الحديث عن مرويات الشافعي، فلنشر إلى الشنفرى الشاعر الذى بلغ غاية كبرى فى الفصاحة وقوة العارضة.

وترجع شهرة الشنفرى إلى لاميته المشهورة بلامية العرب التى توفر على دراستها وشرحها كثير من الأدباء والعلماء، ويكفى أن يكون فى مقدمة شراحها الإمام الزمخشري صاحب تفسير الكشاف.

والشنفرى هو ثابت بن أوس الأزدي، الملقب بالشنفرى، لم يعرف تاريخ ولادته، وقيل فى نشأته آراء مختلفة وروايات متباينة، ولكن هناك إجماعاً على القول بأنه عاش ونشأ بين بنى سلامان من بنى فهم الذين أسروه وهو طفل صغير، فلما شب عرف بقصة أسره، فحلف أن يقتل منهم مائة رجل..

(١) مقدمة ديوان الشافعي تحقيق د محمد عبد المنعم خفاجي

(٢) يقال رجل شعيرة إذا كان سيء الخلق أو صاحب نشاط والشنفار = الخفيف، وناقاة ذات شنفارة أى حدة، والشنفرى اسم رجل لسان العرب لابن منظور

وهو معدود من الشعراء الصعاليك، واشتهر عنه مع زملائه أنه كان من أشهر العدائين وأكثر الشعراء الصعاليك جرأة وأشدهم دهاء.

عاش مع أخوته الصعاليك تارة، ومتفرداً تارة أخرى، في البرارى والجبال والمغارات البعيدة، يغزو على قدميه مرة - وعلى فرسه مرة أخرى، ويهاجم أضعاف عدده من الناس ويسلبهم، وقد مات مقتولاً على يد أحد أفراد القبيلة التي انتقم منها وقتل تسعة وتسعين منها، وأما القتيل المائة فقليل: إنه بعد أن مات الشنفرى رفسه هذا الرجل على جمجمته، فدخلت شظية في قدمه وقتلته.

### شعر الشنفرى

وللشنفرى أشعار كثيرة ولكن أجودها تلك القصيدة المطولة المعروفة بلامية العرب التي يقول عنها النقاد: إنها من أفضل نماذج الشعر الجاهلى عامة وشعر الصعاليك خاصة، وذلك لما حوته من مميزات أساسية فى إبراز حياة الصعلوك وخصاله فى الفروسية والبطولة، والياس من الجماعة الإنسانية. ولها مناسبة يتحدث عنها فى قصيدته - ذلك أنه ضاق ذرعاً بمصاحبة قومه الذين نشأ بينهم، فقرر الهجرة عنهم - بعيداً عن أذى قومه له، وكيف أنه يفضل عشرة وحوش البر على عشرتهم، وقارن بين شجاعته وشجاعة الوحش وقرر أنه أشجع من الوحش، وأنه اختار ثلاثة أصحاب هم قلبه الأبي الشجاع، وسيفه الأبيض، وقوسه الصفراء.

وإليك بعض ما جاء فى قصيدته:

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم      فلانى إلى قوم سواكم لأميل  
فقد حمت الحاجات، والليل مقمر      وشدت لطيات مطايا وأرحل  
وفى الأرض منأى للكريم عن الأذى      وفيها لمن خاف القلى منعزل

(١) السيد: الذئب، العملىس. القوى على الجرى، والأرقط الزهلول: النمر الأملس، ويجوز أن يكون الحية، وبذكر ويونث. والعرفاء ذات العرف، والجبال من أسماء الضبع

لعمرك ما بالأرض ضيق على امرئ  
 ولى دونكم أهلون: سيد عملس  
 وكل أبى باسل غير أننى  
 إذا عرضت أولى الطرائد أبسل  
 هم الأهل، لا مستودع السر ذائع  
 لديهم، ولا الجاني مما لجر يخلد  
 وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن  
 بأعجلهم، إذ أجشع القوم أعجل  
 وماذاك إلا بسطة عن تفضل  
 علىهم، وكان الأفضل التفضل  
 ثلاثة أصحاب: فؤاد مشيع  
 وأبيض إصليت، وصفراء عيطل<sup>(١)</sup>  
 أديم مطال الجوع حتى أميته  
 وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل  
 وأسف ترب الأرض كى لا يرى له  
 على من الطول امرؤ متطول<sup>(٢)</sup>

إن القصيدة رائعة حافلة بغريب اللغة. وأبيات الحكمة النادرة المنخلصة من تجارب الأيام وخوض الأحداث والمغامرات، وتستطيع أن تلمس ذلك بنفسك حين تطالع هذه القصيدة، وتقرأ شروحيها المتعددة التي قام بها كبار الأدباء والمحققين.

(١) الفؤاد المشيع الحسور - أبيض إصليت. سيف صقيل - صفراء عيطل - فرس صفراء طويلة العنق  
 (٢) موسوعة الشعر العربي. اختارها وشرحها وقدم لها مطاوع صندى وإيلي حلدنى / ١، ٥٣، شركة حياط  
 للكتب والنشر - لسان

## الفصل الثاني فى ميدان الفقه

من الذى لفت نظره  
شيوخه  
الإمام مالك  
نجابة الشافعى  
الشافعى يرحل إلى الكوفة





## فى ميدان الفقه

أعجب الشافعى بجمال اللغة وشغف بها، وفرغ إلى ذلك همه، وبذل فيه جهده، ومازال كذلك حتى لفت نظره رجل من بنى عمه إلى أن هناك ما هو أولى بهذا الجهد المبذول، والتعب الموصول.

لقد عاد إلى مكة بعد رحلته الطويلة فى هذيل. وقد علق ذهنه كثيراً من أشعارهم ووعى صدره مالا يحصى من أخبارهم، وأخذ يروى ما سمعه، ويحدث بما وعاه وحفظه، وجذب اهتمام قومه وأهله وأصحابه بما أسمعهم إياه فأخذوا يتحلقون حوله، ويستزيدونه مما يرويه ويحكيه.

ولكن واحداً منهم عز عليه أن تكون هذه العقلية الناضجة، قد صرفت همها كله فى غير زاد ينفع صاحبه فى الآخرة فالتفت إليه يقول: يا أبا عبد الله، عز على ألا يكون لك مع هذه اللغة وتلك الفصاحة فقه.. فتكون بذلك قد سدت أهل زمانك. وقد نبهت هذه العبارة من الشافعى غافلاً.. فبدأ يطلب الفقه..

### من الذى لفت نظره؟

إن هناك روايات متعددة حول التفات الشافعى إلى طلب الفقه والاجتهاد فى تحصيله..

وقد ذكر الدكتور الشرباصى هذه الروايات قال:

من هذه الروايات: أنه كان يسير يوماً على دابة له، وهو ناشئ، وخلفه كاتب لعبد الله الزبيرى، فتمثل الشافعى ببيت من الشعر، فقرعه الكاتب بسوطه كالناصح له

وقال له مرشداً: مثلك يذهب بمروءته في مثل هذا؟ أين أنت من الفقه؟ فآثر ذلك فيه، وهزه، وسارع بمجالسه مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة. وتلقى عنه.

ومن هذه الروايات أنه التقى وهو في طريقه إلى طلب النحو والأدب بمسلم هذا، فقال للشافعي: من أين أنت؟

قال: من أهل مكة.

قال: أين منزلك؟

فقال: بشعب الحنيف.

قال: من أي قبيلة أنت؟

فقال الشافعي: من عبد مناف.

قال مسلم: بخ بخ، لقد شرفك الله تعالى في الدنيا والآخرة، ألا جعلت فهمك هذا في الفقه، فكان أحسن لك؟

ومن الروايات أيضاً: أن الشافعي كان ينظر في الشعر، وارتقى عقبه بمنى، وإذا صوت من خلفه يقول له: عليك بالفقه.

ومن هذه الروايات: أن مصعب بن عبد الله بن الزبير التقى بالشافعي وهو مجتهد في طلب الشعر والغريب والنحو، فقال له: إلى كم هذا؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك، وانصرف به مصعب إلى مالك بن أنس وأوصاه به. فما ترك عند مالك إلا الأقل، ولا ترك شيئاً عند مشايخ المدينة إلا المدينة بعد سنين، وذهب به مصعب إلى مكة، وحدث ابن داود عنه، فأمر له بعشرة آلاف درهم<sup>(١)</sup>.

وعلى أي حال فكل هذه الروايات تشير إلى أن هناك من نبه الشافعي إلى ضرورة الانتباه إلى الفقه وتحصيله، لما في ذلك من شرف الدنيا والآخرة، ولقد كان الذي نبه الشافعي إلى ذلك ناصحاً له، ولا بد أن يكون حريصاً على مصلحة الشافعي مخلصاً في النصيح له، لقد أراد له الخير، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

(١) الأئمة الأربعة، د أحمد الشرباصي ص ١٢٣.

## شيوخه في الفقه

ولكن كم كانت سن الشافعي حين بدأ يقبل على الفقه؟  
في بعض الروايات أن عمره كان أربعة عشر عاماً..

ولعلنا نتذكر أنه في هذه السن كان مازال يطلب اللغة في هذيل. إلا أنا نعود فنقول: إن طلب اللغة لم يكن يشغل حياته كلها، فقد كان يرحل أنا ويعود أنا. ولعله بعد أن حصل ثروة لغوية وأدبية عاد إلى مكة في هذع السن التي وجد من يذكره بأن يطلب الفقه، فشمّر لطلب الفقه. ولم يقطع الفقه أيضاً عن اللغة، وعلى ذلك فقد كان يراوح بين طلب الفقه واللغة - لقد كانت حياته سلسلة من الرحلات لا تنقطع في طلب العلم وتحصيله.

ولكن من شيوخه في طلب العلم؟

## الإمام مالك

يأتي في مقدمة شيوخ الشافعي في طلب الفقه الإمام مالك بن أنس، ومن الروايات التي ذكرناها في تنبه الشافعي لطلب الفقه أن الذي نبهه لذلك هو الذي دله على الإمام مالك، فرحل إليه الشافعي من فوره.

## رحلته إلى مالك

ولنستمع إلى الشافعي يقص علينا قصة رحلته إلى مالك فيقول:

فارقت مكة وأنا ابن أربع عشرة سنة، لا نبات بعارضي، من الأبطح إلى ذي طوى. وعلى بردتان يمانيتان. أو قال: أسمحيتان. فرايت ركباً، فسلمت عليهم، فردوا على السلام.

فوثب إلى شيخ كان فيهم فقال لي: سألتك بمن أقسمت علينا بسلامك إلا حضرت طعامنا.

قال الشافعي - رضي - وما كنت علمت أنهم أحضروا طعاماً فأجبت مسرعاً غير

محتشم، فرأيت القوم بدءوا يأخذون الطعام بالخمس، ويدفعون بالراحة، فأخذت الطعام كأخذهم كي لا يستبشع عليهم ماكلى، والشيخ ينظر إلى ساعة بعد ساعة، ثم أخذت السقاء، فشربت ربا، وحمدت الله تعالى وأثنت عليه.

فأقبل على الشيخ وقال: مكي أنت؟

قلت: مكي.

قال: قرشى أنت؟

قلت: قرشى.

ثم أقبلت عليه وقلت له: يا عم، بم استدلت على؟

قال: أما فى البلد فبالشبه، وأما فى النسبة فبالطعام، لأن من أحب أن يأكل طعام الناس أحب أن يأكلوا طعامه، وذلك فى قرىش خصوصا.

قال الشافعي - رحمته -: فقلت من أين أنت؟

قال: من يثرب مدينة النبي صلوات الله عليه.

قلت: من العالم بها والمتكلم فى نص كتاب الله - عز وجل - والمفتى بأخبار رسول الله صلوات الله عليه؟

قال: سيد بنى أصبح - مالك بن أنس - رحمته.

قال الشافعي: فقلت: واشوقاه إلى مالك.

فقال لى مجيبا: قد بل الله شوقك، أما ترى إلى البعير الأورق؟

قلت: أجل.

قال: هو أحسن جمالنا قيادا وأسلسها مشيا، ونحن ثمانى نفر، ولك منا حسن

الصحة حتى تصل إلى مالك.

قال الشافعي: فقلت متى ظعنكم؟

قالوا: فى وقتنا هذا، فما كان غير بعيد حتى قطروا الجمال بعضها إلى بعض، وأركبوني البعير الذى كانوا وعدوني بركوبه. فعلوت ظهره، وأخذ القوم فى السير وأخذت أنا فى الدرس، فنختمت من مكة إلى المدينة ست عشرة ختمة، بالليل ختمة وبالنهار ختمة، ودخلت المدينة فى اليوم الثامن بعد صلاة العصر.

فصليت العصر فى مسجد رسول الله ﷺ ودنوت من القبر، فسلمت على النبى ﷺ، ولذت بقبره الشريف.

فرايت مالك بن أنس مؤتزرا بيرة متشحا بأخرى وهو يقول: حدثنى نافع عن ابن عمر عن صاحب هذا القبر، ويضرب بيده إلى قبر رسول الله ﷺ.

قال الشافعى: فهتبه هيبة عظيمة، وجلست حيث انتهى بى المجلس، فأخذت عودا من الأرض فجعلت كلما أملى حديثا كتبته بريقى على يدى، ومالك ينظر إلى من حيث لا أعلم. حتى انفض المجلس، وجلس مالك ينتظر صلاة المغرب. ولم يرنى انصرفت فيمن انصرف، فأشار إلى فدنوت منه. فنظر إلى ساعة، ثم قال لى: أحرمت أنت؟

قلت: حرمى.

قال: أمكى أنت؟

قلت: مكى.

قال: أقرشى أنت؟

قلت: قرشى.

قال: كملت صفاتك، ولم تكون سىء الأدب؟

قلت: وما الذى رأيت من سوء أدبى؟

قال: رأيتك وأنا أملى ألفاظ الرسول ﷺ وأنت تلعب بريقك على يدك.

فقلت له: عدمت البياض - أى الأوراق - فكنت أكتب ما تقول.

فجذب مالك يدى إليه، وقال لى: ما أرى عليها شيئاً.

فقلت: إن الريق لا يثبت على اليد، ولكن قد وعيت جميع ما حدثت به من وقت جلست إلى حين قطعت.

فعجب مالك من ذلك فقال: أعد على ولو حديثاً واحداً.

قال الشافعي: فقلت حدثنا مالك عن نافع عن ابن عمر، وأشرت بيدي إلى القبر كإشارته عن النبي ﷺ، حتى أعدت عليه خمسة وعشرين حديثاً. حدث بها من وقت جلس إلى وقت قطع المجلس.

وسقط القرص، وصلى مالك المغرب، وأقبل على عبده وقال: خذ بيد سيدك إليك، وسألني النهوض معه..

قال الشافعي فقممت غير ممتنع إلى ما دعا من كرمه، فلما أتيت الدار أدخلني الغلام إلى مخدع في الدار، وقال لي: القبلة من البيت هكذا، وهذا إناء فيه ماء، وهذا الخلاء من الدار وأشار إليه:

قال الشافعي: ما لبث مالك غير بعيد حتى أقبل هو - والغلام حامل طبقاً فوضعه من يده، وسلم على مالك، ثم قال للعبد: اغسل علينا.

فوثب الغلام إلى الإناء، وأراد أن يغسل على أولاً، فصاح عليه مالك، وقال: الغسل في أول الطعام لرب البيت، وفي آخر الطعام للضيف.

قال الشافعي: فاستحسنت ذلك من مالك، وسألته عن شرح ذلك فقال: إن رب البيت يدعو الناس إلى كرمه فحكمه أن يتدئ بالغسل، وفي آخر الطعام ينتظر من يدخل ليأكل معه.

قال الشافعي: فكشف مالك الطبق، وكان فيه صفحتان في إحداهما لبن، وفي الأخرى تمر، فسمى وسميت، وأتيت أنا وهو على جميع الطعام. وعلم مالك أنا لم تأخذ من الطعام كفاية، فقال: يا أبا عبد الله هذا جهد من مقل إلى فقير معدم.

فقلت: لا عذر على من أحسن إنما العذر على من أساء<sup>(١)</sup>.

(١) تاريخ الإمام الشافعي، رواية الربيع بن سليمان.

هذه إحدى روايات عن لقاء الشافعي بمالك — رضي الله عنه — على أن هناك رواية أخرى تفيد أن هناك وساطة هذا اللقاء .

وقد تمت هذه الوساطة من كبار القوم، فقد حمل الشافعي من والى مكة العباسي رسالة إلى والى المدينة توصى به .

وتقدم الشافعي بالرسالة إلى الأمير في المدينة، ولنقرأ ما رواه الشافعي في ذلك .

قال: دخلت إلى والى مكة وأخذت كتاب والى المدينة وإلى مالك بن أنس فقدمت المدينة فأبلغت الكتاب إلى والى، فلما قرأه قال: يا فتى إن مشيى من جوف المدينة إلى جوف مكة أهون على من المشى إلى باب مالك بن أنس فلست أرى الذل حتى أقف ببابه .

فقلت: أصلح الله الأمير، إن رأى الأمير يوجه إليه حتى يحضر، فقال: هيهات، ليت أنى إذ ركبت أنا ومن معى وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجتنا .

فواعدته العصر، وركبنا جميعا، فوالله لكان كما قال، أصابنا من تراب العقيق، فتقدم رجل فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولى لمولاك إنى بالباب .

فدخلت فأبطأت، ثم خرجت فقالت: إن مولاي يقرؤك السلام ويقول: إن كانت لديك مسألة فارفعها فى رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف .

فقال لها: قولى له إن معى كتاب والى مكة إليه فى حاجة مهمة .

فدخلت وخرجت وفى يدها كرسى فوضعت، ثم إذا بمالك قد خرج وعليه المهابة والوقار، وهو شيخ طويل، فجلس وهو متطلس<sup>(١)</sup>، فرفع إليه والى الكتاب، — فأخذ يقرأ — حتى إذ بلغ إلى هذا الموطن من خطاب التوصية: (إن هذا رجل من أمره وحاله، وتحدثه، وتفعل وتصنع) فرمى بالكتاب من يده وقال: سبحان الله، أوصار علم رسول الله صلوات الله عليه وآله يؤخذ بالوسائل؟

فرايت والى قد تهيب أن يكلمه، فتقدمت إليه، وقلت: أصلحك الله إنى رجل

(١) متطلس: يلبس الطيلسان — نوع من الثياب .

مطلبى، ومن حالى وقصتى كذا وكذا..

فلما سمع كلامى نظر إلى ساعة — وكان لمالك فراسة — فقال: ما اسمك؟

فقلت: محمد.

فقال: يا محمد، اتق الله، واجتنب المعاصى فإنه سيكون لك شأن من الشأن<sup>(١)</sup>.

## نجابة الشافعي

وقد ظهرت نجابة الشافعي فى مجلس مالك، فقد استظهر الأحاديث التى سمعها فوراً. وقيل: إنه كان قد حفظ الموطأ قبل أن يذهب إلى الإمام مالك، فقد روى بعضهم أنه استعار نسخة من الموطأ وهو فى مكة وحفظها فما ذهب إلى مالك إلا وهو على حفظ لكتابه.

وقد رأينا قبل ذلك أنه حفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ولكن هذه الرواية يعارضها أنه كان فى ذلك الوقت فى البادية يطلب اللغة، ولم يكن قد تنبه إلى طلب الفقه، وعماد الفقه الذى طلبه هو الموطأ.

وقد نبغ الشافعي على يد مالك حقا، وقد لزمه فى المدينة، وكان ضيفاً عليه طوال ثمانية أشهر، لا يعرف مكانا له إلا بيت مالك، وقد أنس كل منهما إلى الآخر حتى لم يدر الناس أيهما الضيف وأيهما صاحب المنزل. وأحب مالك الشافعي حباً شديداً، لقد رأى فيه صلاحاً وتقوى، كما رأى فيه نسا شريفاً وحسباً عريقاً. ورأى فيه إقبالا على العلم ورغبة شديدة فيه، وأنه لا يطلب ذلك إلا ابتغاء رضوان الله.. فما كان منه إلا أن أخلص له الود وأثره على ولده.

ولم تكن الدنيا قد أقبلت على مالك فى ذلك الوقت، كان الرزق محدوداً والشظف باد عليه، ولكنه مع ذلك لم يقصر فى حق ضيفه، والجود من الموجود، وليس الكرم إغداق مال وإكثار فى الطعام والشراب، ولكنه بسط وجهه وسرور نفسه وحسن لقاء..

(١) الأئمة الأربعة — د مصطفى الشكعة ص ٣٨٨.



## الشافعي يرحل إلى الكوفة

قال الشافعي - رحمته - أعطاني مالك الموطأ أمليه وأقرؤه على الناس وهم يكتبونه، فأتيت على حفظه من أوله إلى آخره، وأقمت ضيفاً للمالك ثمانية أشهر فما علم أحد من الأنس الذي كان بيننا أينا الضيف.

ثم قدم على مالك المصريون بعد قضاء حجهم زائرين نبيهم صلوات الله ويسمعون الموطأ. فأمليته عليهم حفظاً، وكان من هؤلاء القادمين عبد الله بن الحكم، وأشهب بن القاسم - قال الربيع: وأحسب أنه ذكر الليث بن سعد، ثم قدم بعد ذلك أهل العراق زائرين النبي صلوات الله.

قال الشافعي: فرأيت بين القبر والمنبر فتى جميل الوجه، نظيف الثوب، حسن الصلاة فتوسمت فيه خيراً، فسألته عن اسمه فأخبرني، وسألته عن بلده فقال: العراق.

وما زال الشافعي يسأل هذا الرجل عن العراق وأخبارها، حتى عرف أنه من الكوفة، وأن أعلامها من العلماء ينحصبون في تلاميذ أبي حنيفة، وأشهر هؤلاء الأعلام اثنان هما أبو يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني..

وتعلق قلب الشافعي بهذين العلمين الجليلين، وود لو يلقاهما لينهل من علمهما.

إنه الآن قد حفظ الموطأ تماماً وفهم مسائله، وكانت الأشهر الثمانية التي قضها في رحاب مالك فرصة ذهبية بالنسبة له، لقد رشف فيها من رضاب علم مالك ما رواه.. ولكنه زاده شوقاً إلى طلب المزيد من وجهات النظر العلمية الأخرى.. إن فقه المدينة يدور كله حول السنة والأثر.. وقد سمع أن فقه الكوفة يدور حول الرأي والقياس. فما عليه أن ينهل من ذلك الفقه ليقارن بين العلمين، ويستفيد من البحرين.

واستشف من كلام الكوفي أنه يرحب بأن يصحبه معه في رحلة إلى الكوفة ليلقى الصاحبين، فسأله: متى تظعنون؟

فأجابته الفتى: غداً عند انبلاج الفجر..

ولم يشأ الشافعي أن يرحل دون استئذان، فليس ذلك من طبع الكرام، ولا من

شيمة أصحاب المروءة والشرف، وذوى الحسب والنسب..

لقد أكرمه الإمام مالك كرمًا فائقًا، وأنزله في بيته وجعله ابنه، وقاسمه رزقه، واعتبر نفسه مسئولًا عنه، فكيف يرحل عنه دون أن يستشيريه ويستأذنه؟ ومضى من فوره إلى الإمام مالك يقول له:

لقد خرجت من مكة في طلب العلم دون استئذان أمي، وأنا الآن أطلب رأيك في أن أعود إليها أو أرحل في طلب العلم؟

فأجابه الإمام مالك جوابًا راعى فيه المصلحة بالنسبة له - لقد خشى عليه إن عاد إلى أمه أن تفتخر همته، ويرضى بما حصله ويقف عنده.. فأشار عليه بالاستمرار في طلب العلم. قال له: يا محمد، العلم فائدة يرجع منها إلى عائدة، ألم تعلم أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع؟

وسر الشافعي بما سمع، وافق هذا الرأي رغبته المستكنة في داخله، فقال لمالك: لقد أزمعت السفر إلى العراق فجر غد..

ولم يعترض مالك طريقه، بل شجعه على ذلك، لأنه توسم فيه الخير، والعلماء ينظرون بنور الله. ولم ينس أنه قال له حين لقيه بادئ ذي بدء: يا محمد اتق الله، فإنه سيكون لك شأن من الشأن..

وزوده بما في مقدوره وقتئذ، أعطاه ضصعاً من أقط، ووصاعاً من شعير ووصاعاً من تمر.. وسقاء من ماء..

هذه عدة المسافر وعونه في طريقه الطويل..

والأقط نوع من الطعام خفيف يحمله المسافر ولا يكلفه عناء في إعداده، هو لبن محمض يجمد حتى يستحجر، ويطبخ أو يطبخ به - لعله قريب من «الكشك» الذي نستعمله في أيامنا..

وحمد الشافعي ربه أن هياً له ذلك، وتوجه بالشكر الجزيل لأستاذه الذي أفسح له صدره وبيته، وأفاض عليه من كرمه مدة إقامته، وسقاه من علمه ما أفاده وأغناه..

فلما كان سحر اليوم التالي، خرج الإمام مالك مشيعاً تلميذه الأثير، وعاوناه في حمل ما معه من زاد، وسار معه إلى البقيع حيث تتجمع قوافل المسافرين. وهنا كانت مفاجأة للشافعي.

لقد أعد الشافعي نفسه ليسافر إلى الكوفة راجلاً، فهو لا يملك راحلة، وليست معه نقود يكتري<sup>(١)</sup> بها راحلة، وليس هناك من يحمله كما حمله صاحب يثرب إلى يثرب. إن حسبه أن يصحب القوم المسافرين يأنس برفقتهم، ويأمن في صحبتهم أذى الطريق ووعشاء السفر ومخاطر السباع وقطاع الطرق، ولكن فوجئ بأن أستاذه مالكا يصيح قائلاً: من يكرى راحلة إلى الكوفة؟

ويسمع من أصحاب الرواحل الذين يعدون أنفسهم لهذا العمل من يجيبه..

وهنا أقبل الشافعي يقول له: لم تكتري وأنت لا شيء معك، وأنا لا شيء معي؟

ولكن الإمام مالكا يطبمته قائلاً: ألا تعلم أن فرج الله قريب، وأن الله تعالى يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾﴾ (الشرح: ٥، ٦) ولن يغلب عسر يسرين؟؟ لقد جاء الفرج من حيث لا تحتسب، إنه بالأمس بعد أن انصرفنا من صلاة العشاء الآخرة قرع على الباب قارع. فخرجت إليه فإذا بعبد الرحمن بن القاسم المصري. فرحبت به، ورجاني أن أقبل هديته، فقبلتها تأدباً بأدب النبي ﷺ الذي كان لا يرد الهدية، لقد دفع إلى صرة فتحتها فإذا بها مائة مثقال - دينار - وقد أتيتك بنصفها، وتركت النصف لعيالي.

ما أكرمك يا مالك! وما أبرك! وما أعظمك!

واكتري مالك للشافعي راحلة بأربعة دنانير، ودفع إليه الباقي وقدره ستة وأربعون ديناراً، وهو مبلغ يكون ثروة في تلك الأيام..

وودع الأستاذ تلميذه، وعاد، وانطلق الشافعي إلى الكوفة في صحبة القافلة راكباً مستريحاً آمناً.

(١) يؤجر.

ومكثت القافلة مسافرة ما يقرب من أسبوعين حتى حطت رحالها في الكوفة قريباً من مسجدها العامر.

### لتقاؤه بالصاحبين

ويوم الشافعي من فوره صوب المسجد، وكان المصلون قد اصرفوا من صلاة العصر. وصى العصر قضاء..

وبينما هو كذلك إذ رأى فتى قد دخل المسجد فصلى، فلم يحسن الصلاة، والشافعي فقيه ومعلم، ورأى أن من واجبه أن يصحح لهذا المصلي صلاته، فقام إليه ناصحاً له مشفقاً عليه، قال له: أحسن صلاتك أيها الفتى حتى لا يعذب الله هذا الوجه الحسن بالنار.

ولكن هذا النصيح لم يصادف قبولا عند الفتى وأثاره، ونظر إلى الشافعي وقال له: أظنك من أهل الحجاز؟ قال الشافعي: نعم.

قال الفتى: لقد علمت أن أهل الحجاز فيهم غلظة وخشونة وجفاء، وقد حرموا من رقة أهل العراق ولطفهم. أعلم أيها الحجازي أنني أصلى هذه الصلاة منذ خمس عشرة بين يدي إمامين جليلين هما أبو يوسف ومحمد ومع ذلك لم يعيبا على صلاتي. وخرج الفتى سبادراً من المسجد، مغاضباً لهذا الحجازي الذي وصفه بأنه لم يحسن الصلاة.

وقد أراد الله أن ييسر أمام الشافعي فرصة لقاء الصاحبين اللذين تجشم مشقة هذه الرحلة. من أجلهما.. فما أن خرج الفتى من المسجد حتى وجد الصاحبين أمامه، فاستنجد بهما ليأخذاً له بحقه من هذا الحجازي الجاف.

قال الفتى للصاحبين: هل علمتما في صلاتي التي أصليها أمامكما من عيب؟ فأجاباه: كلا.

قال الفتى: ألا فاعلما أن في مسجدنا هذا رجل عاب على صلاتي.

فقال له الصحابان: امض إلى هذا الرجل وسله: بم يدخل المصلى في الصلاة؟  
وعاد الفتى محنقا، وفي زعمه أنه سوف يأخذ بثأره من هذا الرجل الغريب،  
وألقي إليه السؤال الذي لقنه.

فأجاب الشافعي إجابة مقتضبة، ولكنها تشير إلى علم ومقدرة، قال له: يدخل  
المصلى الصلاة بفرضين وسنة.

وبالتأكيد لم يفهم الفتى الجواب، ولكنه مضى به إلى صاحبه، وقال لهما: لقد  
أجابني بأن المصلى يدخل الصلاة بفرضين وسنة.

فما أن سمعا الجواب، حتى فطنا بأن هذا الجواب من رجل لديه نظر في العلم،  
ومعرفة بالفقه.. فقالا الفتى: عد إلى الرجل، وقل له: «الفرضان؟ وما السنة؟»  
وعاد الفتى أدراجه إلى الشافعي فطرح عليه السؤال..

فقال له الشافعي: أيها الفتى، الفرض الأول هو النية، والفرض الثاني هو تكبيرة  
الإحرام. أما السنة فهي رفع اليدين.

ورجع الفتى إلى الصحابين بالجواب، فأدركا أن الرجل عالم، ولا بد من لقائه..  
ودخلا المسجد ليلقيه، ومعهما الفتى.

ونظرا إلى الشافعي، ولكن ملبسه البدوية، ووعاء السفر البادية عليه بعد رحلة  
طويلة شاقة جعلتهما يجفلان من لقائه بعد أن هما بالاقتراب منه.

يقول الشافعي: فدخلا المسجد فلما نظرا إلى أظنهما ازديانتي، فجلسا ناحية..  
وقالا للفتى الذي معهما: اذهب إليه فقل له: أجب الشيخين.

ولكن الشافعي لم يكن ليقبل على نفسه هذه المهانة. إنه متواضع حقاً ولكن  
التواضع ليس معناه أن يقبل صاحبه الإذلال.

حقاً إنه قد جاء من أجل العلم، ومن أجل لقاء هذين الرجلين، ولكن لا بد لهذين  
الرجلين أن يحسنا لقاء هذا الغريب، وعليهما ألا يقدرنا الإنسان بزبه ومنظره، بل يجب

أن يقدره بعلمه وعقله ومنطقه. فما بالهما حين عرفا جوابه أقبلا عليه، فلما نظرا إليه ارتدا عنه؟

لقد ساء ذلك حقا، وأراد أن يتتصف لنفسه.

فلما جاءه الفتى وقال له: أجب الشيخين، قال له: من حكم العلم أن يؤتى إليه ولا يأتي، وما علمت أن لى إليهما من حاجة، فإن كان لهما حاجة فليأتيا.

فلما أبلغهما الفتى الجواب أدركا أن هذا الرجل ليس إنسانا عاديا، بل لا بد أنه على حظ موفور من العلم والفضل، فمن حقه عليهما أن يقوموا إليه.

وقاما من فورهما وتوجها إليه، وألقيا عليه السلام، فقام الشافعي من مجلسه، ورد عليهما السلام. وأجلس كل واحد منهما في مجلسه، وأظهر البشاشة لهما. وجلس بين أيديهما كجلسة المتعلم.

وأقبل محمد بن الحسن على الشافعي يقول له: أحرى أنت؟

فقلت الشافعي: نعم.

فقال له: أعربى أم مولى؟

فقال الشافعي: عربى.

فقال له: من أى العرب أنت؟

قال الشافعي: من ولد المطلب.

قال محمد بن الحسن: من ولد من؟

قال الشافعي: من ولد شافع.

قال له: أرايت مالكا؟

قال الشافعي: من عنده أتيت.

قال له: هل نظرت فى الموطأ؟

قال الشافعي: ما جنت إلا وأنا أحفظه.

وعظم ذلك على الشيخين فما كانا يظنان أن هذا الرجل الذي ازدرياه على هذا القدر.. ولكن ألا يكون ذلك ادعاء؟ وإذن فلا بد من التثبت من صحة هذه الدعوى.. ومن ادعى ما ليس فيه كذبه شواهد الامتحان.

وما أسرع أن أمرا باستحضار دواة وأوراق.

وأمسك محمد بن الحسن بالقلم وكتب عدة مسائل من الفقه تناول مختلف الأبواب. وترك تحت كل مسألة فراغا يسمح بالإجابة.

وألقي بالأوراق التي دون فيها الأسئلة إلى الشافعي، وقال له: أجب عن هذه الأسئلة من الموطأ.

وتناول الشافعي الأوراق، وأخذ يجيب على الأسئلة، ولكنه لم يلتزم بنص الموطأ.

لقد أجاب على الأسئلة من الكتاب والسنة وإجماع المسلمين.. وبذلك أظهر مقدرته، وأنه لم يكن واقفا عند حد العلم الذي تلقنه من مالك وموطئه.

فما أن قرأ الصحابان إجابة الشافعي حتى أدركا أنه إمام بارع، وليس مجرد رجل مدع.. وقد حق لهذا الرجل أن يعرفا له قدره وأن يحل بينهما في المحل اللائق به.

لقد استدعى محمد بن بن الحسن الشيباني غلامه، وقال له: خذ سيدك وانطلق به إلى المنزل. ونظر إلى الشافعي وسأله أن يقوم مع الغلام ويمضى معه.. فقام الشافعي غير ممتنع وقد حمل بعض أدواته التي جاء بها من المدينة، وحمل الغلام بعض هذه الأدوات حتى خرجا من المسجد.

وقال الغلام للشافعي: لقد أمرني سيدي ألا تنصرف إلى البيت إلا راكباً فقال له الشافعي: قرب دابتك..

فقرب الغلام إليه بغلة عليها سرج محلى.. طاف بها أزقة الكوفة حتى وصل إلى منزل الشيباني.

ونظر الشافعي إلى الدار، وتأمل محاسنها، ورأى ما فيها من نقوش وحلى وما تحتويه من فرش وثيرة وأدوات نضيرة، وتذكر شظف أهل الحجاز وضيق معيشتهم، وجذب أراضيتهم، فأخذ يبكي.

وجاء محمد بن الحسن فرآه على هذه الحالة من البكاء.. وفهم سبب بكائه.. فقال له: لا يرعك يا أبا عبد الله ما رأيت، فما هو إلا من كسب حلال، ليس فيه شبهة، وإن زكاته لتؤدى كاملة غير منقوصة.

ولم يقصر محمد بن الحسن في حق ضيفه، فما بات عنده حتى كساه خلعة قيمتها ألف درهم.

وأحسن محمد بن الحسن ضيافة الشافعي، وعرف أنه ما جاء إلا للقاءه ولقاء صاحبه ليتنفع بعلمهما.

وقام محمد بن الحسن إلى خزائن كتبه فأخرج منها الكتاب الأوسط الذي ألفه أبو حنيفة. فنظر فيه الشافعي في ليلته، فما أصبح إلا وقد حفظه وهكذا كان شأن الشافعي في سرعة حفظه وقوة عارضته. حتى روى الرواة عنه في ذلك الأعاجيب.

قالوا عنه: إنه كان يخبأ في أثناء قراءته الصفحة المقابلة للصفحة التي يقرؤها حتى لا تسبق عينه إلى شيء فيها فيحفظه مع الصفحة التي يقرأ فيها. وهذا شيء من النوادر.

وقالوا: إنه كان إذا رأى كتاباً وقرأه حفظه كله. وذكروا في معرض الدليل على ذلك أنه مر بسوق بغداد يوماً، فرأى دلالاً يعرض مخطوطاً للبيع فقال له الشافعي: بكم تسمح في بيع هذا الكتاب؟

فقال الرجل: أرضى فيه بعشرين ديناراً.

فأمسك الشافعي بالكتاب، واستعرضه قراءة من أوله، فما فرغ من آخره حتى حفظه. وقال للدلال لا داعي لشرائه لأنى أحفظه.

فتعجب الدلال، ولم يصدقه في ذلك.



فقال له الشافعي: اسمع على هذا الكتاب، فقرأ عليه الكتاب حتى بلغ نصفه ولم يخطئ. ثم قال للدلال: خذ مني عشرين ديناراً هدية وكتابك معك، لتنتفع من ثمنه من غيري، فيا سبحان الله، ما أعظم هذا الذكاء.

عن سواد الكوفي

وإذن فقد حفظ الشافعي كتاب الأوسط في ليلته.

وجلس محمد بن الحسن يوماً للإفتاء، وجلس الشافعي في مجلسه، وسأله سائل عن مسألة، فأجاب فيها تقليداً، وقال: هكذا قال أبو حنيفة.

واستعرض الشافعي ما حفظه في ذهنه من الكتاب فإذا به يجد أن ما أجاب به محمد بن الحسن غير صائب. فقال له: إن ما يقوله أبو حنيفة في هذه المسألة غير ذلك، والدليل على ذلك أن ما يسبقها من المسائل كذا وكذا، وما يعقبها من المسائل كذا وكذا.

واستدعى محمد بن الحسن من حمل إليه الكتاب ونظر فيه فإذا ما يقوله الشافعي حق فرجع إليه، ولكنه لم يخرج إلى الشافعي فترة طويلة، وقد استفاد منه علماً غزيراً. ورجب الشافعي في الرحلة، وعرض ذلك على الشيباني.

وحاول الشيباني استبقاءه عنده، ولكنه أجابه بأنه ما جاء إلا متعلماً، وبأن هدفه الرحلة في طلب العلم. فزوده الشيباني بكل ما يملك من مال، ولكن نهمة الشافعي كانت في العلم، فطلب منه أن يزوده بالكتب التي تحمل علم أبي حنيفة، ولكن محمد بن الحسن لم يسعه بذلك، فكتب إليه يقول:

قل للذي لم تر عينا	من رآه
ومن كان من رآه	قد رأى من قبله
لأن ما يجنه	فأق الكمال كله
العلم ينهي أهله	أن يمنعه أهله
لعلمه يبطله	لاهمه لعلمه (١)

(١) ديوان الشافعي ص ١٠٧.

## التعريف بمحمد بن الحسن

كان محمد بن الحسن الشيباني هو الشيخ الثاني للإمام الشافعي بعد الإمام مالك .  
وقد عرفناه كيف تشوق إلى لقائه ورحل إليه من المدينة إلى الكوفة .

وهذا الشيخ هو عبد الله محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني بالولاء، الفقيه الحنفي، وأصله من قرية على باب دمشق في وسط الغوطة اسمها «حريستا» وقدم أبوه من الشام وأقام بواسط، فولد بها ابنه محمد المذكور .

ونشأ محمد بالكوفة، وطلب الحديث، وجالس العلماء وتلقى منهم، وكان إمام الكوفة المشهور في ذلك الوقت هو أبو حنيفة - رضي الله عنه - فلزمه، وتفقه عليه، ثم لزم أبا يوسف بعده .

وما زال يطلب العلم حتى بزغ نجمه، وذاع صيته، وله مؤلفات كان لها أثر في نشر المذهب الحنفي منها الجامع الكبير والجامع الصغير .

وكان يمتاز بالفصاحة وجمال الأسلوب، يقول ابن خلكان عنه: كان إذا تكلم خيل إلى سامعه أن القرآن نزل بلغته . .

وقد ولاء الرشيد القضاء على مدينة الرقة، ثم استقدمه بغداد فلزمه حتى مات وهو يرافقه في إحدى رحلاته إلى الري، وتصادف أن كان معه في الرحلة الكسائي إمام النحو، فمات أيضا في هذه الرحلة، فقال الرشيد وقد أسف لفراقهما: دفنت الفقه والعربية في الري، وكانا قد ماتا في يوم واحد سنة تسع وثمانين ومائة .

## تلمذة الشافعي له

وكانت تلمذة الشافعي له في سنة خمس وستين ومائة تقريبا، وكان الشافعي مازال غلاما بعد، وذلك حين ترك المدينة راحلا إلى الكوفة بعد إقامة دامت ثمانية أشهر مع الإمام مالك على ما قدمنا . .

ولم تطل إقامة الشافعي بالكوفة لدى محمد بن الحسن، فقد رحل سريعا بعد أن أخذ ما استطاع من علم سمعه منه، وقد قدر ابن النديم مدة مصاحبة الشافعي لمحمد

بن الحسن بسنة<sup>(١)</sup>.

ولكنه حمل معه في أثناء أوبته كتباً كثيرة قال عنها الشافعي: حملت من علم محمد بن الحسن وقر بعير. وقد يكون التعبير كناية عن الكثرة.

وقد توثقت الصلة بين الشافعي ومحمد بن الحسن في هذه الفترة، حتى لقد عز علي محمد أن يستأذنه في الرحيل، وعرض عليه أن يشاطره نعمته ويبقى بجواره، بعد أن انس إليه وأحبه.

ولكن الشافعي آثر الرحيل، لأنه يريد أن يروى نهمه من العلم، إنه كالتحفة يحب الانتقال لرشف الرحيق من الأزهار.

فودعه الشيباني بعد أن أعطاه كل ما تحتويه خزائنه من مال سائل يقدر بثلاثة آلاف درهم.

### مناظرات بينه وبين محمد بن الحسن

لا تعنى تلمذة الشافعي لمحمد بن الحسن أن الشافعي كان خلوا من العلم، ولكنها تعنى الاستزادة منه، فقد رحل الشافعي إلى الكوفة وقد شهد له الأكفاء بالإفتاء، وقد جلس الشافعي في حلقة محمد بن الحسن مستمعا ومقارنا، وأحيانا يناظر محمد بن الحسن ويدل ذلك على أن الشافعي كان إمام ولم يكن مجرد تلميذ، وقد علمنا أنه حفظ كتاب أبي حنيفة في ليلة، ومن حفظه له رد محمداً عن خطأ وقع فيه...

ومن المناظرات التي دارت بينهما مناظرة دارت حول مسألة في الغصب:

روى الشافعي أن محمداً قال له يوماً: بلغنا أنك تخالفنا في مسائل الغصب، فقال له الشافعي: أصلحك الله، إنما هو شيء أتكلم به في المناظرة، فإني أجلك عن المناظرة.

فقال له محمداً: ما تقول في رجل غصب ساحة وبنى عليها جداراً، وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين على أنها ملكه؟

قال الشافعي: أقول لصاحب الساحة: ترضى أن تأخذ قيمتها؟ فإن رضى، وإلا قلعت البناء ودفعت الساحة إليه.

قال محمد: فما تقول في رجل غصب لوحاً من خشب، فأدخله في سفينة،

(١) الفهرست لابن التميمي ص ٣٠٨.

ووصلت السفينة إلى لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشاهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟

قال الشافعي: لا.

قال محمد: الله أكبر، تركت قولك.

ثم قال محمد: ما تقول في رجل غصب خيطا من إبريسم، فجرح بطنه فخاط بذلك الإبريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين أن هذا الخيط مفصوب، أكنت تنزع الخيط من بطنه؟

قال الشافعي: لا.

قال محمد: الله أكبر، تركت قولك، وقال أصحاب محمد أيضا: تركت قولك.

قال الشافعي: لا تعجلوا، أرايت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم أراد أن ينزع ذلك اللوح من السفينة وهي في عرض البحر، أمباح له ذلك أم يحرم عليه؟ قال محمد: يحرم عليه.

قال الشافعي: أرايت لو جاء مالك الساحة وأراد أن يهدم البناء وينزعها أيحرم عليه ذلك أم يباح؟

قال محمد: بل يباح.

قال الشافعي: رحمك الله، فكيف تقيس مباحا على محرم؟

قال محمد: فكيف يصنع بصاحب السفينة؟

قال الشافعي: أمره أن يسيرها إلى أقرب السواحل، ثم أقول له: انزع اللوح وادفعه إلى صاحبه.

قال محمد: قال النبي ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار في الإسلام».

قال الشافعي: من ضره؟ هو ضر نفسه.

ثم قال الشافعي: ما تقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج

فى غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة، صاروا كلهم قضاة سادات أشرافا خطباء، فأتى صاحب الجارية بشاهدين عدلين شهدا بأن هذه الجارية التى هى أم هؤلاء الأولاد مملوكة له، ماذا تعمل؟

قال محمد: أحكم بأن هؤلاء الأولاد ممالك لذلك الرجل.

قال الشافعى: أنشدك الله، أى هذين أعظم ضررا: أن تقلع الساحة وتردها للملكها، أو تحكم برق هؤلاء الأولاد؟  
فانقطع محمد بن الحسن.

هذه المناظرة وأمثالها التى كانت تجرى بين هذين العلمين تشير إلى أن الشافعى لم يكن مجرد تلميذ لمحمد، بل كان عالما ناضجا، طويل الباع، وإنما كان سعيه لمحد بن الحسن على سبيل الاستزادة من العلم، والتعرف على وجوه الرأى، والتبرك بلقاء الشيوخ، والتعرف عليهم، وإن فى ذلك لأعظم القوائد.

### تعلق محمد بن الحسن بالشافعى

لقد أحب محمد بن الحسن الإمام الشافعى حبا شديدا حتى إنه أثره على الخليفة ذات يوم... ذلك أن محمداً امتطى سهوة جواده فى طريقه للقاء الخليفة، وإذا به يلتقى بالشافعى وجها لوجه، فيترجل الإمام فوراً، ويعتق الشافعى، ويعود منصرفاً به إلى داره، ويصر الشافعى أن يمضى محمداً فى طريقه<sup>(1)</sup>.

ولكن محمداً أصر أيضاً على أن يضرب صفحا عن قصده ويؤثر الجلوس إلى الشافعى، وما ذاك إلا لأن الشافعى قد بلغ من نفس محمد بن الحسن منزلة رفيعة، وتبوأ فى قلبه مكانا ساميا.

وإذا كنا بصدد الحديث عن محمد بن الحسن فإننا لا ننسى أن محمداً كان يتمتع بشخصية عربية شجاعة، تعتر بنفسها وتحافظ على كرامتها.

يقال: إن الخليفة الرشيد دخل يوماً على مجلس من القوم فيهم محمد بن الحسن فقام الجميع ماعداً محمد بن الحسن، فانصرف الرشيد وفى نفسه شىء.

(1) كانت هذه الحادثة فى لقاء آخر تم بين الشافعى ومحمد، فى أيام محنة الشافعى التى تعرض لها.

وما لبث القوم إلا قليلا حتى جاء رسول يطلب محمد بن الحسن، فظن الجميع أن الرشيد سوف ينتقم منه، ولكن ذلك لم يحدث.

فقد سأل الرشيد محمدا: لماذا لم تقم كما قام غيرك؟

فأجاب محمد: لقد كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، إنك أهلتني للعلم فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة، ثم إنني سمعت أن ابن عمك رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار»<sup>(١)</sup>.

### أريحية الشيوخ

وإننا لنعجب من سير هؤلاء الاعلام من العلماء الذين كانوا يغدقون على تلاميذهم من أموالهم ويعلمونهم، ويشاطرونهم أرزاقهم، بل كثيرا ما يؤثرون تلاميذهم على أنفسهم وأولادهم.

إنها المثالية الكاملة، والأريحية العظيمة، وقد لمسنا ذلك في أبي حنيفة الذي كان يقوت تلاميذه ويعولهم ويشركهم في نعمته، ويقول لهم: هذا رزقكم أجراه الله لكم على يدي، فلا من لي عليكم.

ولمسنا ذلك في مالك - رضي الله عنه - الذي شاطر الشافعي ما أفاءه الله عليه، وقال له: لقد أعطاني الله في هذه الليلة مائة مثقال أبقيت لعيالي نصفها وجئتك بنصفها، وسيشاطره نعمته بعد ذلك.

وهذا محمد بن الحسن يعرض على الشافعي أن يبقى ويشاطره نعمته، ولكن الشافعي يأبى ويقول: ما جئت لعرض الدنيا، ولو كان هدفي ذلك ما خرجت من بيتي، إنما جئت لتحصيل العلم والضرب من أجله في الأرض فأعطاه محمد بن الحسن كل ما يملك من مال سائل.

شتان بين علماء اليوم وعلماء الأمس!!

ولم يكن هذا آخر لقاء بين الشافعي ومحمد، فسوف تكشف الأحداث أن هناك لقاء آخر تم بين هذين العلمين في بغداد في مجلس الرشيد، وستزداد الصلة قوة ومتانة ووثوقا.

(١) الأئمة الأربعة د/ مصطفى الشكعة ص ٥١٩.

## الفصل الثالث

# تنبؤ آخرون للتنافعي

سفيان بن عينة

مسلم بن خالد الزنجي

وكيع بن الجراح

ابراهيم بن أبي يحيى

الماجشون





## شيوخ آخرون للشافعي

يحدث الرواة أن هناك شيوخا كثيرين للشافعي وهذا حق، فإن شخصية الشافعي الهائلة في تحصيل العلم لا يمكن أن تقف عند حد الاقتناع بعلم واحد أو اثنين من العلماء مهما بلغ كلاهما من سعة العلم وفيضه.

حقا كان الإمام مالك بحرا زاخرا، وموسوعة علمية نادرة، وكذلك كان محمد بن الحسن الشيباني، ولكن الطالب الطموح تواق دائما إلى المعرفة وطلب المزيد، والنبى ﷺ يقول: «طالبان لا يشبعان طالب علم وطالب مال».

ومن الشيوخ الذين تلقى عليهم الشافعي.

### سفيان بن عيينة

وهو أبو محمد سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الهلالي، مولى امرأة من بنى هلال بن عامر، رهط ميمونة زوج النبى ﷺ.

أصله من الكوفة، وانتقل به أبوه إلى مكة حيث أقام بها، وأصبح عالمها المتفرد في وقته.

وسبب انتقال أبيه من الكوفة إلى مكة أن أباه كان من عمال خالد بن أبي عبد الله القسري أيام أن كان واليا على العراق، فلما عزل خالد وتولى بعده يوسف بن عمر الثقفي أخذ يطلب عمال خالد، فهربوا، وكان ممن هرب عيينة والد سفيان، ولجأ إلى مكة، ونزل بها.

تلقى سفيان بن عيينة العلم على يد الزهري، وأبي إسحاق السبيعي وعمرو بن دينار ومحمد بن المنكدر، وأبي الزناد وعاصم بن أبي النجود، والأعمش، وعبد الملك بن عمير، وغيرهم من الأئمة الأعلام في وقتهم.

كما تلقى عنه الشافعي وشعبة بن الحجاج، ومحمد بن إسحاق صاحب السيرة، وكثير غير هؤلاء.

حج سفيان بن عيينة سبعين حجة، أخبر ابن أخيه عنه قال: حججت مع سفيان آخر حجة حجها سنة سبع وتسعين ومائة، فلما كما بجمع، وصلى استلقى على فراشه ثم قال: قد وافيت هذا الموضع سبعين عاما، أقول في كل سنة: اللهم لا تجعله آخر العهد من هذا المكان، وإنى قد استحيت من الله من كثرة ما أسأله ذلك، فرجع فتوفى في السنة الداخلة يوم السبت أول يوم من رجب سنة ثمان وتسعين ومائة، ودفن بالحجون. وكان سفيان إماما عالما، ثبنا، زاهدا، وزعا، مجمعا على صحة حديثه وروايته.

### من فراسته

روى ابن خلكان قال: خرج سفيان يوما إلى درسه وهو ضجر، فقال: أليس من الشقاء أن أكون جالست ضمرة بن سعيد، وجالس هو أبا سعيد الخدرى، وجالست عمرو بن دينار، وجالس هو ابن عمر - رضي الله عنه - وجالست الزهرى، وجالس هو أنس بن مالك - حتى عد جماعة، ثم إنى أجالسكم؟؟

فقال له حدث فى المجلس: أنتصف يا أبا محمد؟

قال: إن شاء الله تعالى.

فقال: والله لشقاء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بك أشد من شقائك بنا، فأطرق، وأنشد قول أبي نواس.

خل جنبــــــــــــــــيك لرام      وامض عنه بــــــــــــــــلام  
مت بداء الصمت خــــــــــــــــير      من داء الــــــــــــــــكلام  
إنما الــــــــــــــــالم من      الجسم فــــــــــــــــاه بلجــــــــــــــــام

تفرق الناس، وهم يتحدثون برجاحة الحدث، وكان ذلك الحدث يحيى ابن أكرم التميمى.

فقال سفيان: هذا الغلام يصلح لصحبة السلاطين.  
وتحقت فراسة سفيان فعلا. فأصبح يحيى وزيرا للخلفاء.

وكانت تلمذة الشافعي لسفيان في مكة، قال عنه الشافعي: ما رأيت أحداً فيه من آلة الفتيا ما في سفيان، وما رأيت أكف منه عن الفتيا. (١)

ويرجح أن تكون تلمذة الشافعي له بعد عودته من رحلاته واستقراره بمكة. وإن كان بعض الرواة يذكر أنه من أوائل الشيوخ الذين التقى بهم، وأنه كان شيخه قبل رحيله إلى مالك.

### ومن شيوخه مسلم بن خالد الزنجي

وهو مسلم بن خالد بن سعيد بن جرجة، أحد الأئمة الأعلام في مكة كان مولياً لآل سفيان بن عبد الأسد المخزومي، كانت ولاية موالاته لا اعتقاقة، وأصله من الشام رحل إلى مكة وأقام بها. س

ولقب الزنجي غلب عليه، وليس بسبب لونه، فقد كان أبيض مشرباً بحمرة... أخبر أحمد بن محمد بن الوليد الأزرقى عنه أنه كان فقيهاً عابداً يصوم الدهر، ويكنى أبا خالد.

توفى بمكة سنة ثمانية ومائة في خلافة هارون الرشيد (٢).

وبعض الرواة يقولون: إن تلمذة الشافعي للزنجي كانت مبكرة، كانت قبل أن يتوجه إلى المدينة لملاقاة مالك، وقد ذكرنا أن من الروايات التي حركت همته للفقاه أن قائلاً لفت نظره إلى ذلك فآثر ذلك فيه وهزه وسارح بمجالسة مسلم بن خالد الزنجي مفتى مكة، وعلى صحة الرواية فإن تلمذته للزنجي كانت عقب عودته من بادية هذيل مباشرة.

وعلى أي فقد أفاد الشافعي من الزنجي وروى عنه، وكان له أثر كبير في حياته، ولقد أعجب بحصافة الشافعي ومقدرته، فأذن له في الإفتاء وهو ابن أربع عشرة سنة.

### وكيع بن الجراح

والتقى في الكوفة في أثناء إقامته فيها بوكيع بن الجراح، وأخذ عنه.

وهو وكيع بن الجراح بن مليح بن عدى بن سفيان بن الحارس بن عمرو ينتهي نسبه إلى عامر بن صعصعة، ويكنى أبا سفيان.

(١) الطبقات الكبرى ٥ / ٥٨٦.

(٢) راجع ترجمته في وفيات الأعيان ١ / ٣٧٥ - الطبقات الكبرى ٥ / ٥٨٤.

حج سنة ست وتسعين ومائة في خلافة الأمين بن هارون الرشيد، ومات في المحرم سنة سبع وتسعين ومائة<sup>(١)</sup>.

كان من أئمة الكوفة الذين يشار إليهم بالبنان، ووصفه الذهبي بأنه أحد الأعلام. قال عنه الإمام أحمد: ما رأيت أوعى للعلم ولا أحفظ من وكيع، وكان يحيى بن أكثم يقول عنه: صحبت وكيعا فكان يصوم الدهر، ويختم كل ليلة<sup>(٢)</sup>. ولو كيع مؤلفات منها: كتاب السنن - أشار إليه ياقوت. ولا بد أن يكون وكيع قد ترك أثره في الإمام الشافعي، وهو الذي كان يبثه شكواه، ويتنصحه فيما يحزبه من أمور، وهو الذي يقول عنه الشافعي:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي  
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي<sup>(٣)</sup>

وتلمذته له كانت في الكوفة في أثناء رحيل الشافعي إليها بعد خروجه من المدينة. ومن شيوخه: هشام بن يوسف ويكنى أبا عبد الرحمن، وأصله من الأبناء أي أبناء الفرس الذين تناسلوا في اليمن بعد إخراج الحبشية منها. وكان هشام قاضيا باليمن، تلمذ الشافعي له أيام أن كان في اليمن وروى يوسف هذا عن معمر، وعن ابن جريج، ومات باليمن سنة سبع وتسعين ومائة<sup>(٤)</sup>.

### ومن شيوخه: إبراهيم بن أبي يحيى، وكان من أئمة المدينة.

التقى به الشافعي في المدينة أيام أن كان يختلف إليها. وكان إبراهيم يميل إلى مذهب المعتزلة، ولكن الشافعي لم يرتض هذا المذهب وعدل عنه، ولذلك عتب عليه

(١) الطبقات الكبرى ٦ / ٤١٥.

(٢) دول الإسلام ١ / ١٢٤ - أي يختم القرآن.

(٣) ديوان الشافعي ص ٨٨ تحقيق د / محمد عبد المنعم خفاجي.

(٤) الطبقات الكبرى ٥ / ٦٢٤.

إبراهيم فقال له: تجالسونا وتسمعون منا، فإذا ظهر لأحدكم شيء دخل فيه. وقيل: إنه قال: هذه حين عزم الشافعي على التوجه إلى اليمن عاملاً فيها.

إن جلوس الشافعي إليه لا يعنى أنه انتحل مذهبه. بل كان بغية الإفادة ومعرفة مذاهب العلماء، ولكنه له شخصيته المستقلة التي توازن بين الآراء والمذاهب، فإذا لم يرتض شيئاً رفضه، وقد رأينا كيف أجاب على الأسئلة التي طرحها عليه محمد بن الحسن، وطلب منه أن يجيب عليها من الموطأ، كيف أنه أجاب عنها من الكتاب والسنة والإجماع، ولم يلتزم بما جاء في الموطأ.

ومن شيوخه في اليمن أيضاً مطرف بن ماذن، ويكنى أبا أيوب.

وكان من الذين تولوا القضاء بصنعاء، ولا يتولى القضاء إلا من اهتته المنزلة العلمية لذلك.

ولم يستمر مطرف في اليمن طويلاً، ولكنه ارتحل عنها، ومات بالرقعة في خلافة هارون الرشيد<sup>(١)</sup>.

وقيل: إن مطرفاً هذا كان أحد الذين وشوا بالشافعي فأدى إلى محنته ولكن هذا كلام مردود بدليل أن الشافعي روى عنه ولا يروى الشافعي عن كذاب.

### ومن شيوخه: عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة الماجشون

ولعله تتلمذ له في المدينة في أثناء إقامته فيها، وكان عبد العزيز إماماً فقيهاً، وله ابن فقيه أيضاً اسمه عبد الملك، وقد تتلمذ عبد الملك للإمام مالك، وكان كفيفاً، ويقال: إنه عمى في آخر حياته.

وكان عبد الملك من الفصحاء المعجبين بالإمام الشافعي يجمع بينهما رواية الغريب وحب الأدب، روى أنه كان إذا ذكروه الإمام الشافعي لم يعرف الناس كثيراً مما يقولان، لأن الشافعي تأدب بهذيل في البادية، وعبد الملك تأدب في خؤولته من كلب بالبادية<sup>(١)</sup>.

(١) الطبقات ٥ / ٦٣٢.

ويبدو أن تلمذة الشافعي لعبد العزيز كانت في المدينة قبل أن ينتقل عبد العزيز إلى بغداد فإنه قد انتقل إليها وأقام بها حتى مات سنة أربع وستين ومائة، وقد روى عنه أهل بغداد كثيرا حتى لتعد رواية العراقيين عنه أكثر من رواية المدنيين عنه، ويقول عنه صاحب الطبقات: إنه ثقة كثير الحديث<sup>(٢)</sup>.

ومن شيوخه بالمدينة الدراوردي، واسمه عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد، ويكنى أبا محمد، وهو مولى للبرك بن وبره، وكان أصله من داراورد، وهي قرية بخراسان، ولكنه ولد بالمدينة ونشأ بها، وسمع العلم والأحاديث من شيوخها، وصار علما فيها يقصده الناس للعلم، ولم يزل بالمدينة حتى توفي سنة سبع وثمانين ومائة<sup>(٣)</sup>.

### ومن شيوخه بالمدينة أيضاً عبد الله بن نافع الصائغ

مولى لبني مخزوم، وكان قد لزم مالك بن أنس لزوما شديدا وأخذ عنه، وكان مالك لا يقدم عليه أحدا، وكان من الطبيعي أن يأخذ عنه الشافعي ويستفيد منه، وقد توفي عبد الله بن نافع بالمدينة في شهر رمضان سنة ست ومائتين<sup>(٤)</sup>.

وهناك شيوخ آخرون تلقى عنهم الشافعي غير هؤلاء، نذكر منهم:

محمد بن علي بن شافع وهو ابن عم والده.

وعبد الله بن الحارث المخزومي.

ومحمد بن إسماعيل بن أبي فديك.

وسعيد بن سالم القداح.

وإسماعيل بن جعفر. ويحيى بن أبي حسان، وهو من أصحاب الليث بن سعد، وغيرهم.

(١) وفيات الأعيال ١ / ٥١٣.

(٢) الطبقات الكبرى ٧ / ٣٥١.

(٣) الطبقات الكبرى ٥ / ٥٠٦.

(٤) المرجع السابق ص ٥٢٤.

وجرت على لسان الشافعي مصطلحات تعنى شيوخه الذين روى عنهم .

فإنه إذا قال: أخبرني من لا أتهم فإنه يعنى بذلك إبراهيم بن أبي يحيى، وإذا قال: أخبرني الثقة عن الليث بن سعد فإنه يعنى يحيى بن حسان أستاذه فى اليمن، وقد كان يحيى تلميذا لليث .

وإذا قال أخبرني الثقة عن ابن جريج فإنه يريد مسلم بن خالد(١) .

ولابد أن يكون قد التقى فى رحلاته الكثيرة التى كان لا يكف عنها بكثير من الشيوخ، ورحلاته لم تكن فى طلب جاه أو منصب، ولكنها كانت فى سبيل طلب العلم ولقاء الشيوخ، ولا يخلو مكان يذهب إليه من شيوخ مشهورين شهدهم العصر الذى كان يعيش فيه .

لقد كان بمكة الإمام الجليل عبد العزيز بن أبي رواد، وكان إلى جانب علمه عابدا وتوفى سنة تسع وخمسين ومائة .

وكان فيها الفضيل بن عياض الإمام الورع الزاهد وقد جاور بمكة وتوفى بها سنة سبع وثمانين ومائة .

وكان فى عصره شعبة بن الحجاج العتكي الواسطي شيخ البصرة الذى قال عنه الشافعي: لولا شعبة لما عرف الحديث بالعراق، ولكنه من المرجح أن الشافعي لم يلقه، ولكن تقريره المذكور عنه كان نتيجة إطلاعه .

وكان فى عصره نافع بن أبي نعيم المدني أحد القراء السبعة مات تسع وستين ومائة بالمدينة ودفن بالبقيع، ولا يبعد أن يكون الشافعي لقيه وأخذ عنه فى أثناء وجوده فى المدينة .

وكثير غير هؤلاء الأعلام الذين يفوقون الإحصاء .

وكانت الحقبة التى عاش فيها الشافعي حقبة مشهورة بالعلم وازدهاره .

(١) الإمام الشافعي ناصر السنة - عبد الحلیم الجندی ص ٧٥ .

## ازدهار العلم

لقد اعتنى العباسيون بازدهار العلم وشجعوا على طلبه، وكافأوا على التقدم فيه، لأنهم رأوا أن العلم هو أساس تقدم الدولة، ويعد العصر العباسي وبخاصة الصدر الأول منه أزهى عصور اللغة العربية، بلغت فيه اللغة العربية ذروة الكمال رصانة واتساعا وجمعا لما تفرق من محاسن اللغات، وصارت فيه لغة الدين والعلم والأدب، وترجمت إليها علوم الدنيا من الطب والنجوم والكيمياء والميكانيكا والفلسفة والمنطق والسياسة وتدير المنزل، حتى أصبحت العلوم في ذلك العصر تتجاوز ثلثمائة في الشرع واللغة والتاريخ والأدب وغيرها، وما زال هذا العصر هو المثل الأعلى الذي يؤمل اليوم كل محب للغة أن يدور بها الفلك دورته، فتعود إلى ما كان لها فيه من سلطان ومكانة سامية.

والذي حدا بالعرب إلى العناية بالعلوم — كما يقول الأستاذ محمود مصطفى:

هو الضرورة الحافزة؛ إذ لا يعقل أن أمة يتعاضم عمرانها وتتسع رقعة ملكها كما حدث للأمة العربية ثم تبقى مستغنية عن العلم غير محسة بالحاجة إليه فهذه الضرورة المدنية تدفعهم إلى طلب الطب للعلاج، وإلى معرفة الحساب لضبط جبايتهم، وإلى الهندسة لإقامة مبانيهم، وهكذا لا ترى علما من العلوم الكونية من فلك وكيمياء وفنون حرب وتديير ملك إلا والمدنية داعية إليه موجبة له.

ثم علوم الدين وغيرها من النفسيات تدعو إليها ضرورة الاجتماع، حتى تضمن السعادة لأمم تزدهم بها مواطنها، وتكثر مطالبها، وتتعدد علاقاتها، وعلوم اللسان عند العرب شأن خاص إذ كان كتاب دينهم وهو القرآن الكريم بالعربية، فنشأت علومها من نحو ولغة وغيرها في خدمة القرآن حتى يظل واضح البيان مفهوم العبارة.

وقد قيض الله للعلم من نصره في جميع فترات هذا العصر، فحين كانت الدولة عربية خالصة في أيام الخلفاء الأول — وأيام المنصور والرشيد والمأمون وغيرهم والشافعي عاش في هذه الفترة — كان يحدوهم إلى العناية بالعلم حرصهم على بقاء دولتهم؛ إذ العلم سياج الدول والضامن لبقائها، وقد ساعد على ذلك قوة الدولة وكثرة جبايتها، فسهل على الخلفاء — وهم ذوو السلطان المطلق — أن يبذلوا في سبيل العلم، فألهبوا



الهمم بعطايهم، حتى رأينا أنه لم يمض على دولتهم قرن من الزمان حتى كانت قد وضعت جميع العلوم الإسلامية، وترجم أكثر ما عرف من علوم الأمم القديمة المدنية. فاجتمع للعرب علم الأوائل والأواخر، وانصرفت الهمم إلى تحصيل هذه العلوم والزيادة عليها، حتى أتوا فيها بالعجب العجيب<sup>(١)</sup>.

### الشافعي ابن عصره

والشافعي كان نتاج عصره، لديه الاستعداد الذهني والنفسي، وقد فطره الله تواقا للعلم، وقد رأى حوله تزام الناس حول العلماء، وكيف بلغ هؤلاء العلماء من منزلة في نفوس الناس وبلاط الخلفاء.

إلا أن الشافعي لم يكن هدفه من تحصيل العلم بلوغ تلك الغاية، إن فيه بقية من مثل، كان يحرص على طلب العلم لغاية العلم، وكان يرى في بذل نفسه له تقربا إلى الله تعالى، وأهم ما كان يطلبه الفقه الذي هو رأس مال الحكمة وبه يصل الإنسان إلى الله، وكان يظن أن ما يطلبه في بدء حياته وسيلة إلى التفقه في كتاب الله تعالى ومعرفة أسرارها، فقد كان العلماء يستعينون على فهم لغة القرآن بالشعر، وكان ابن عباس - رضي الله عنه - إذا سئل عن معنى كلمة فسرهما بما يرويه من شعر.

### ابن عباس وتفسيره لغة القرآن

روى عبد الله بن أبي بكر بن محمد عن أبيه قال: بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة، قد اكتفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق: لنجدة بن عويمر: <sup>(٢)</sup> قم بنا إلى هذا الذي يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه، فقالا: إننا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله تعالى فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإنما أنزل الله - تعالى - القرآن بلسان عربي مبين - فقال

(١) الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي - محمود مصطفى ص ١٧٥.

(٢) نافع بن الأزرق رئيس طائفة من الخوارج اسمها الأزارقة نسبة إليه، كان هو أميرهم وفقههم ومفتيهم توفي

سنة ٦٥ هـ.

ومجده بن عويمر الحروري كان رئيسا لفرقة من الخوارج اسمها الطائفة النجدية، نسبة إليه أيضا، توفي سنة ٦٩ هـ.

ابن عباس: سلاني عما بدا لكما.

فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾

(المعارج: ٣٧).

قال ابن عباس: العزون: الحلق الرقاق.

قال: وهل تعرف ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص، وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول مينة عزينا؟

قال: أخبرني عن قوله — تعالى — ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الِوَسِيلَةَ﴾ (المائدة: ٣٥).

قال: الوسيلة: الحاجة.

قال: وهل تعرف العرب ذلك؟

قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي<sup>(١)</sup>

وظل نافع يسأل، وابن عباس يجيب حتى استفرغ نافع كل ما عنده، ووجد ابن

عباس بحرا طاميا.

لذلك أقبل الشافعي على اللغة والشعر في بدء حياته بالعلم.

وبعد أن أخذ الشافعي حظه من اللغة أقبل على الفقه الذي رأى فيه الغاية المثلى

استمع إليه يقول:

كل الالعلوم سوى القرآن مشغل إلا الحديث وعلم الفقه في الدين

العلم ما كان فيه قال حدثنا وما سوى ذلك وسواس الشياطين<sup>(٢)</sup>

(١) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ١ / ٦٨

(٢) ديوان الشافعي ص ١٢٤

## الفصل الرابع رحلة التنافعى

الشافعى يرفض القضاء  
من يؤلف كتاب فى المسجد  
الشافعى فى الشام  
مدينة حران  
الشافعى يوزع ما معه



## رحلة الشافعي

وقد رأينا كيف كان الشافعي يرحل في طلب العلم، وإنه ليتحمل في سبيل ذلك مخاطر ومشقات، ولكن الله كان يعينه على ذلك وييسر عليه السبل.

ففي أثناء ذهابه إلى المدينة من مكة قيص الله له الركب الثريبين الذين أطعموه وحملوه فوق جمل أورق.

وفي أثناء ذهابه إلى الكوفة هيا الله له الإمام مالكا الذي اقتسم معه ما أفاء الله عليه، واكترى له الراحلة التي أوصلته إلى الكوفة.

وفي أثناء خروجه من الكوفة هيا الله له محمد بن الحسن الذي أعطاه كل ما في خزائنه من دراهم وقدرها ثلاثة آلاف درهم، وهي ثروة لا بأس بها.

لقد خرج من الكوفة طوانا في بلاد العراق وأرض فارس وبلاد الأعاجم، وعاد إلى العراق مرة أخرى، وكانت سنة إذا ذاك إحدى وعشرين سنة، وصادف ذلك أول خلافة هارون الرشيد.

لقد طالت هذه الرحلة التي طوف فيها بأقطار عدة، وبلغت عدة سنوات يمكن تقديرها بسبع سنوات أو أقل قليلا.

وفيقضى آبار تكرر تبرأ  
وإذا مت لست أعلم قبراً  
نفس حر ترى الملة كفرأ

أمطرى لؤلؤا جبال سرنديب  
أنا إن عشت لست أعلم قوتا  
همتى همة الملوك ونفسي

وإذا ما قنعت بالقوت عمري فلماذا أزرر ريدا وعمراً؟<sup>(١)</sup>

وصل الشافعي إلى بغداد، ودخل من أحد أبوابها وبدأ يخطر في داخلها، وإذا بسلام لا يعرفه يتقدم إليه، ويلطفه الكلام، غير يسأله عن اسمه ونسبه فيخبره الشافعي بذلك، فثبت السلام المعلومات التي حصلها في لوح ثم يحييه وينصرف.

وأوى الشافعي في بغداد إلى أحد المساجد. وبعد أن صلى العشاء الآخرة نام فيه ونام أيضاً بعض المنقطعين وأبناء السبيل.

وفي منتصف الليل فوجئ بالشرطة تكبس المسجد، وأخذوا يسألون كل شخص ويتفرون فيه حتى وصلوا إلى الشافعي، فإذا بهم يقولون: أنت — طلبتنا — وطماننا كل من في المسجد، وقالوا للشافعي: أجب أمير المؤمنين.

وفكر الشافعي في أمره، لماذا يطلبه أمير المؤمنين؟ ولماذا هو بالذات وليس هناك من جناية جناها أو حدث أحدثه؟

ولكنه أسلم أمره إلى الله، وتقدم مع الشرطة غير ممتنع، حتى وصلوا إلى قصر الخلافة. وتقدم إلى الخليفة رابط الجأش، مجتمع النفس، ثابت القلب، وألقى السلام على أمير المؤمنين في لغة فصيحة ونبرة قوية.

ورد هارون الرشيد السلام على الشافعي بمثله، وأعجب بفصاحة الشافعي واستطاع أن يميز بصفاء ذهنه أن هذا الرجل متقول عليه بالباطل، وأنه متهم بغير دليل، وأنه مأخوذ بشبهة.

نظر الرشيد إلى الشافعي وسأله: أنت تزعم أنك من بني هاشم؟

فأجاب الشافعي في ثقة: يا أمير المؤمنين، كل زعم في كتاب الله باطل، وقد جاء في الحديث: «زعموا — مطية الكذب».

فسأله الرشيد عن نسبه، فأقبل الشافعي يتلو سلسلة نسبه حتى وصل إلى آدم أبي البشر.

(١) دوان الشافعي ص ٧٦.

فبهرت هذه المعرفة الرشيد، وجعلته ينظر إلى الشافعي في دهشة وعجب، إن الرجل منا يقف عند حدود بعد عدة آباء، وهذا تقصير من غير شك، أما الشافعي فلم يكتف بأن يصل إلى الجد السابع أو الثامن أو العاشر بل يتجاوز قريشاً إلى عدنان إلى إسماعيل، وما زال يصعد في بيان واضح وأسلوب ناصع حتى الحق آدم بالطين.

ولئن دل ذلك على شيء فإنما يدل على اعتزاز بالنسب من جهة، وإلى علم واسع من جهة أخرى.

وأثنى الرشيد على الشافعي، وقال له: لا تكون هذه الفصاحة حقا إلا في رجل من بني المطلب.

### الشافعي يرفض القضاء

لقد ظفر الرشيد برجل من أبناء عمومته له مزايا عظيمة، وفضائل مرموقة، وحق له أن ينتفع بهذه المواهب، فعرض عليه أن يوليه القضاء، قال له: هل لك أن تتولى قضاء المسلمين وتشاطرنى ما أنا فيه، ولك على أن أطلق يدك في تنفيذ الأحكام على ما شرعه الله تعالى في قرآنه الحكيم، وجاءت به السنة النبوية المطهرة وأجمعت عليه الأمة؟؟

ولو كان الشافعي ممن تستميله الدنيا لقبول هذا العرض فوراً بدون تردد، ولكنه نذر نفسه للعلم، وهو يدرك أن القضاء قد تكون فيه مبالاة للسلطان ولو بدون قصد، فاعتذر في لباقة، وقال للرشيد: يا أمير المؤمنين لو سألتني أن أفتح باب القضاء بالغداة وأغلقه بالعشى بنعمتك هذه ما فعلت ذلك أبداً، فبكى الرشيد.

إن الشافعي في رفضه القضاء قد تمثل بالإمام أبي حنيفة الذي عرض عليه القضاء فأبى، وعذب في سبيل ذلك ولم يقبل، بل إنه استشهد في محبسه، ذلك أن القضاء فتنة، وكان رد أبي حنيفة على أبي جعفر المنصور حين أراد أن يوليه القضاء: والله يا أمير المؤمنين ما أنا مأمون في الرضا فكيف أكون مأموناً في الغضب؟ ولو اتجه الحكم عليك ثم هددتني أن تغرقني في الفرات لاخترت أن أغرق، ولك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك فلا أصلح لذلك.

والإمام الشافعى عالم، وقد حفظ حديث النبى ﷺ الذى يقول:

«القضاة الثلاثة، اثنان فى النار وواحد فى الجنة: رجل علم الحق فقضى به فهو فى الجنة، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار، ورجل عرف الحق فجار فى الحكم فهو فى النار»<sup>(١)</sup>.

كان الشافعى يرى أن القاضى إنما هو واقف على شفير جهنم، وإنما هو على وجل دائما، وكيف يأمن على نفسه الحيف أو التطلع، وهو الذى يقول: «من ولى القضاء ولم يفتقر فهو سارق»<sup>(١)</sup>.

ورفض الشافعى عرض الخليفة:

وقال الخليفة له: ألا تقبل من عرض من ديانا شيئا؟

ولم يشأ الشافعى أن يرد رغبة الخليفة فى هذه المرة، فقبل، ووصله الخليفة بألف دينار قبضها، ولم يصل إلى باب القصر حتى كان قد وزعها على خدام السلطان وحشمه، ولم يبق منها إلا كقدر نصيب واحد منهم.

إنه السخاء الذى ركب فى طبعه، والدنيا فى يده لا تساوى شيئا، لانه يؤمن بأن المال لا قيمة له إلا فى إنفاقه، ولا معنى له فى إمساكه.

وعاد الشافعى إلى المسجد الذى قبض عليه فيه، ولم يكن الفجر قد لاح بعد.

### الشافعى يؤلف كتابا فى المسجد

وحانت صلاة الفجر، وتقدم إمام المسجد، وهو غلام ناشئ فصلى بهم صلاة الفجر وكان جيد القراءة، ولكنه سها فى الصلاة، ولم يعرف كيف يعالج الموقف فيسجد للسهو، وخرج من الصلاة.

فقال له الشافعى: يا غلام أفسدت علينا وعلى نفسك الصلاة فأعدها.

(١) أحرجه السيوطى فى الجامع الصغير عن بريدة، وروى مثله عن ابن عمر

(١) أبو حنيفة - عبد الخليم الجندى ص ٢٠٠.



فأعاد الصلاة مسرعا.

وبعد الانتهاء من الصلاة قال للإمام: اتنى بورق أكتب لك أحكام السهو فى الصلاة وكيف تدخل فى الصلاة تخرج منها.

قال الشافعى: فسارع إلى ذلك، وفتح الله على قريحتى، وكشف عن صدرى، وسال بالعلم قلمى، وألفت كتابا شيدته على كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ وإجماع المسلمين، يدور حول موضوع السهو فى الصلاة وقد طال هذا الكتاب، وسميته باسم صاحبى هذا فهو كتاب الزعفران. ثم مازال الشافعى يضيف إلى هذا الكتاب حتى بلغ أربعين جزءا، وقد أتمه فى ثلاث سنوات.. وهو أول كتاب ألفه.

### الشافعى فى الشام

كانت ذكريات المدينة لا تزال تعيش فى صدر الشافعى وإنه لیتنسم أخبار مالك الذى شعر فى جواره بأعظم إكرام، لقد أضفى عليه من حنانه وعطفه وبره ما جعله يشعر بأنه فى حمى أبيه، ولقد أنزله فى بيته وبين أولاده ثمانية أشهر لم يحس فى خلالها بأنه ضيف، بل أحس بأنه رب المنزل، وكان مالك معه فى غاية التواضع، حتى لقد حمل له زاده فى ليلة سفره وسار معه مودعا له، واكترى له الراحلة وزوده بالمال، فكيف ينسى الشافعى وهو الحسيب النسيب هذه الأيادى البيضاء؟

كان يستخبر الوافدين من قبل الحجاز لعله يتعرف مع بعضهم على أخبار عن شيخه الأثير مالك.

وفى يوم لقى وفدا من الحجيج قادما من المدينة. فاستوقفهم، وقصد قائد القافلة ليسأله عن أهل الحجاز عامة، وعن مالك خاصة.

وكان جواب القائد مطمئنا للشافعى على شيخه وعلى الناس جميعا قال له: إن الخير يعم المكان، وإن لمالك الآن ثلثمائة جارية، يبيت عند الواحدة ليلة، فلا يبيت عندها مرة أخرى إلا بعد عام وهذه مغالاة بعيدة يصعب على العقل تصديقها.

أى نعمة هذه؟ لقد فتح الله أمام مالك مغاليق الرزق. وإنه لجدير بذلك، إن النعمة

عند الكريم لها مذاق خاص، لأنها تأخذ طريقها منه إلى غيره من المعوزين وأبناء السبيل، وإنه ليشرك معه فيها طلابه وأحبابه وجيرانه وغيرهم من الناس، فتتصاعد السنة الحامدين والشاكرين لله، داعين لصاحب النعمة أن يضاعفها الله له، ويثبه على ما قدم جزيل الثواب وعظيم الجزاء واشتاقت نفس الشافعي لرؤية مالك، لقد رآه في حال بؤسه، وكان غاية في الرضا والكرم والصبر. فكيف يكون في حال نعمته وغناه؟

لقد كان مالك متخلقا بأخلاق النبيين والصدقيين الذين لا يثنيهم الفقر عن مكارم الأخلاق ومطبقا قول النبي ﷺ «إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن ليسعهم منكم بسط الوجه وحسن الخلق»<sup>(١)</sup>.

وقوله ﷺ: «أفضل الصدقة جهد المقل وابدأ بمن تعول»<sup>(٢)</sup>.

وقوله ﷺ: «أفضل الصدقة وأنت صحيح صحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر»<sup>(٣)</sup>.

وتحركت الأشجان في قلب الشافعي، واشتعلت الأشواق لرؤية شيخه، ولكن كيف يرحل والشقة بين بغداد والمدينة بعيدة؟

وانطلق إلى صديقه الزعفراني الذي ألف له كتاب السهو، وقال له: أهنك من المال ما يصلح للسفر؟

وكان الزعفراني قد تعلق قلبه به، وأنس إليه كما أنس محمد بن الحسن في الكوفة به فأراد أن يستبقيه، وقال له: إنك لتوحشني وحشة شديدة، بل إنك ستوحش أهل العراق عامة ببعدك عنهم.

ولما رأى إصرار الشافعي على الرحيل قال له: أما المال فكل ما تحت يدي رهن إشارتك، وهو ملك لك.

فقال الشافعي: وكيف تعيش؟

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية والحاكم في المستدرک عن أبي هريرة

(٢) أخرجه أبو داود والحاكم عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده والنسائي عن أبي هريرة.

فقال الزعفراني قولاً حكيماً، وأطلق عبارة صائبة هي: الجاه أوسع من المال.

نعم يستطيع الإنسان أن يعيش بجاهه وأخلاقه دون أن يخشى العيلة، والرجل الكريم صاحب الخلق الرفيع كل أموال الناس أمواله، والحكماء يقولون: من أخذ وأعطى شارك الناس في أموالهم، أما البخيل الشحيح الذي لا يعطي الحقوق فقلما يأمنه الناس ويتعاملون معه.

وأخذ الشافعي من صديقه حسب كفايته من المال، وودعه وانصرف، ميمماً شطر الحجاز، ومخترقاً ديار ربيعة ومضر، ومازال جادا في سيره حتى وصل إلى حران في ديار الشام.

## مدينة حران

وحران بفتح الحاء وتشديد الراء مدينة عظيمة مشهورة تعد قسبة ديار مضر بينها وبين الرها يوم وبين الرقة يومان، وهي على طريق الموصل والشام والروم وسميت بذلك باسم هاران أخى إبراهيم عليه السلام، ثم عربت فقبل لها حران وذكر قوم أنها أول مدينة بنيت على الأرض بعد الطوفان، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ (المنكوت: ٢٦) إنه قصد حران، وفي قوله تعالى ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ (الانبيا: ٧١) هي حران.

وإن كان معجم البلدان قد تحدث عن حران بهذا الوصف فإن ابن جبير في رحلته قال عنها عكس ذلك، قال: بلد لا حسن لديه، ولا ظل يتوسط برديه، قد اشتق من اسمه هواؤه، فلا يآلف البرد ماؤه، ولا تزال تتقد بلفح الهجير ساحاته وأرجاؤه، لا تجد فيه مقبلا، ولا تنفس منه إلا نفساً ثقيلاً، قد نبذ بالعراء، ووضع في وسط الصحراء، فعدم رونق الحضارة، وتعتت أعطافه من ملابس النضارة، أستغفر الله - كفى بهذا البلد شرفاً وفضلاً أنها البلدة العتيقة المنسوبة لأبينا إبراهيم عليه السلام وله قبليها بنحو ثلاثة فراسخ مشهد مبارك، فيه عين جارية، كان مأوى له ولسارة صلوات الله عليهما، ومتعبدا لهما بركة هذه النسبة قد جعل الله هذه البلدة مقراً للصالحين

المتزهدين، مثابة للسائحين المتبتلين<sup>(١)</sup>.

وصل الشافعي إلى حران يوم الجمعة، وأراد أن يستعد للصلاة بالغسل على حسب السنة، فقصد الحمام.

وكان سفره قد طال، وطال معه شعره، وتشعث، فأراد أن يأخذ منه، فاستدعى الحلاق، وبدأ عمله في شعره وأخذ القليل منه، ودخل قوم من ذوى اليسار الحمام، فترك الحلاق الشافعي قبل أن يكمل له الحلاقة، واتجه إلى هؤلاء الموسرين، حتى إذا فرغ منهم عاد إليه..

وخرج من الحمام وأراد أن يلحق هذا الحلاق درسا في الأخلاق، لقد أعطاه أكثر ما كان معه من دنانير، نظر الحلاق مبهورا إلى هذه الدنانير الكثيرة ولم يكن له بها عهد، وما كان ينتظر من هذا الرجل إلا دوانيق معدودة.

قال له الشافعي: خذ هذا المال، وإذا وقف بك غريب فلا تحقره.

إن الحلاق من أبناء الناس الذين يزنون أقدار الرجال بأزيائهم ومناظرهم، لا شأن لهم بعقول الناس ومكارمهم وأخلاقهم.

ولقد عجب الحلاق من ذلك، وأغلب الظن أنه لام نفسه وأظهر الأسف، وأخذ في الاعتذار حتى لفت بذلك نظر الغادين والراذحين.

وعلم الناس بما أغدقه الشافعي على الحلاق من مال، فاستكروا ذلك، وقالوا: حسبه من الدراهم كذا وكذا. أما أن يتنقل الأجر من فئة الدراهم إلى فئة الدنانير فهو السفه بعينه.

ولكنه الشافعي قال لهم: إن ما قدمت له قليل، ولو أمكنتني دفع أكثر من ذلك لفعلت.

يلتقى بأحد تلاميذه

وبينما هو كذلك إذ خرج من الحمام أحد الأعيان، وقدم له غلامه بغلة ليركبها،

(١) رحلة ابن جبير ص ١٨٨.

واسترعى اهتمامه اجتماع الناس فوقف يتأمل الموقف، وإذا عينه تقف على الشافعى،  
فتزل من فوق بغلته بعد أن استوى عليها، تقدم إليه قائلاً:

أنت الشافعى؟

قال الشافعى: نعم.

فأمر غلامه أن يقدم البغلة للشافعى وأقسم عليه أن يركب ليمضى إلى منزله.

ولم يسع الشافعى إلا الاستجابة، هذه كرامة من الله له، ولا يأبى الكرامة إلا  
لثيم.

وامتطى الشافعى صهوة البغلة، وسار الغلام بجانبه وهو ممسك بزمامها حتى  
وصل إلى منزل الرجل.

ونزل الشافعى، وجاء صاحب المنزل فبالغ فى الترحيب بالشافعى وإكرامه.

وحين حان وقت الطعام مدت أمام الشافعى مائدة حافلة، وتولى صاحب المنزل  
بيده غسل يدى الشافعى. وانقبض الشافعى عن تناول الطعام، فسأله الرجل عما يقبضه  
فقال الشافعى: لقد بالغت فى إكرامى، تنازلت لى عن بغلتك، ورحبت بى فى  
منزلك، وقدمت لى هذه المائدة الحافلة بالطعام وأنا لا أعرفك.

لا بد لى أولاً أن أعرف من أنت؟ وكيف عرفتنى وأنا لا أعرفك؟

فتطلق ووجه الرجل وقال: أهذا ما شغل ذهنك أيها الإمام الفاضل؟

قال الشافعى: نعم.

قال الرجل: ألا فاعلم أنى أحد تلاميذك.

قال الشافعى: كيف؟

قال الرجل: أرايت الكتاب الذى ألفته فى بغداد بخصوص سجود السهو؟

إننى سمعته منك ورويته عنك، فأنا تلميذك وأنت شيخى، إنك صاحب فضل

سابق، وصدق من قال: من علمني حرفاً صرت له عبداً.

انبسطت أسارير الشافعي، وتبدد همه، وقال لمضيفه: حقاً: إن العلم رحم بين أهله.  
وأقبل على الطعام بشهية مفتوحة، ونفس مطمئنة. وظل الشافعي ضيفاً على صاحبه  
ثلاثة أيام.

فلما كان اليوم الثالث قال الرجل للشافعي: اعلم أن لي حول حران أربع ضياع  
هي أجمل حران، أكثرها غلة وأبهجها منظراً، وأشهد الله الذي لا إله إلا هو أنها هدية  
مني إليك لو اخترت المقام عندي.

ولكن أنى للشافعي أن يقبل وعرض الدنيا لا يشغله؟

قال الشافعي لمضيفه: ما لهذا قصدت، وما فارقت بلدي مكة إلا لطلب العلم، إن  
لي أما لا عائل لها سوى، ولا أخ لي يرعاها من بعدي، ومع ذلك فقد تركتها راحلاً  
في طلب العلم. فما تعرضه على — مع إغرائه لغيري — لا أجد له قبولاً عندي، وإن  
لك من قلبي موفور الشكر وعاطر الشاء.

وتحركت أريحية الرجل وقال: ما دمت قد رفضت المقام عندنا، وعزمت على  
الرحيل فمن حقك على أن أزودك من المال بما أقدر عليه، إن عندي في هذه الصناديق،  
وأشار إليها، أربعين ألف درهم فخذها بارك الله لك فيها، وإنها لدون ما تستحق.

وألح الرجل على الشافعي في قبولها، وما كان للشافعي أن يرد الهدية تأدباً بأدب  
النبي ﷺ فقبلها.

وودع الرجل ضيفه الشافعي أحر وداع، وزوده الشافعي بخالص الدعاء وأمطره  
جزيل الشاء.

### الشافعي يوزع ما معه

عاد الشافعي من حران ثرياً، معه أحمال من المال. وما تعود الشافعي أن يكون  
صاحب ثروة، ولن يكون، إن هذه الثروة التي معه من حق إخوانه وأصحاب الحاجة

## الشافعي يوزع ما معه

عاد الشافعي من حران ثريا، معه أحمال من المال. وما تعود الشافعي أن يكون صاحب ثروة، ولن يكون، إن هذه الثروة التي معه من حق إخوانه وأصحاب الحاجة وطلاب العلم وأهل الحديث.

ولقيه في طريقه من العلماء سفيان بن عيينة، ووقد كان أستاذه في مكة ذات يوم. ولقيه الأوزاعي وهو من الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين، وهو صاحب مذهب كان بعض الناس يتمذهبون به، وكان منتشرًا في الشام وبعض الأقطار كما لقيه ابن حنبل، وكان حبيبا للشافعي أثيرا عنده وهو أحد تلاميذه.

فأفاض على هؤلاء مما معه من مال.

وسار في طريقه إلى المدينة فما وصل إلى مدينة «الرمالة» حتى كان ما معه من مال قد نفذ، ولم يبق منه إلا عشرة دنانير.

ما أكرمك يا شافعي، أربعون ألف درهم تنفقها في طريقك إلى الحجاز، ولم يبق معك إلا هذا المبلغ اليسير، وباليته أيضا بقى!!

لقد اشترى بهذا المبلغ راحلة ركبها إلى المدينة المنورة، بعد رحلة استمرت ما يقرب من شهر.

بلغ المدينة في وقت الاصيل.

وقصد من فوره المسجد النبوي، فصلى العصر ثم سلم على النبي ﷺ.

واتجه بنظره ناحية المكان الذي كان يجلس فيه مالك قبل خروجه من المدينة فجر يوم منذ عشر سنوات تقريبا أو تزيد.

ورأى كرسيًا من الحديد عليه مخدة من قباطي مصر، مكتوب عليها: لا إله إلا الله، محمد رسول الله ﷺ وحول الكرسي دفاتر لا يحيط بها العدد.

وبعد قليل أحس بحركة وجلبة ملأت المكان، وانساب إلى أنفه عطر طيب ملاً

أرجاء المسجد، ونظر إلى جهة الباب الذي كان يدخل منه النبي ﷺ فإذا بمالك يدلف منه يحف به التلاميذ من كل جانب وهو يتقدمهم في موكب نبيل.

واستقبله من كان جالسا من تلاميذه في إجلال وتعظيم، وجلس على ذلك الكرسي، تغمره الجلالة والبهاء.  
واستعد مالك لإلقاء درسه.

### مالك يتعرف على الشافعي

وبدأ مالك درسه بمسألة فقهية حول جراح العمدة، وكان الشافعي قد أخذ مجلسه في مؤخر الصفوف، تفصله عن مالك مسافات طويلة.  
وطلب مالك من تلاميذه الإجابة عن المسألة.

وهمس الشافعي في أذن رجل بجواره بالإجابة عن المسألة، وطلب منه أن يجيب.  
ووقف الرجل وأجاب، ولكن مالكا لم يأبه به وإن كان قد سمع إجابته، إنه يريد أن يسمع من المقربين منه، ولكنه سمع إجابته فلم يرتضها لأنها لم توافق الصواب، وقال: الصواب مع ذلك الرجل الذي أجاب أولا.

ثم ألقى مسألة ثانية، ففعل الشافعي مع الرجل مثلما فعل قبل ذلك، فأجاب الرجل، وأجاب المقربون من مالك ولكنهم لم يصيبوا وأصاب الرجل. فقال مالك: لقد أصاب الرجل. وأخطأتم ثم ألقى مالك مسألة ثالثة.

ولقن الشافعي الرجل الجواب فسارع إلى الإجابة، في حين أخفق المقربون إلى مالك، فقال لهم: الحق مع ذلك الرجل، وقد أخطأتم أنتم الجواب.

وكان من حق هذا الرجل الذي أصاب في إجابته على مالك أن يكرمه ويقربه، فأشار إليه أن تقدم، فليس مجلسك في المؤخرة، بل مجلسك في المقدمة.

وتقدم الرجل، فقال له مالك: أقرأت الموطأ؟

قال الرجل: لا.



قال له: هل لقيت ابن جريج؟

قال الرجل: لا.

قال له مالك: هل لقيت جعفر الصادق؟

قال الرجل: لا.

قال له: فمن أين لك هذا العلم الذي أجبت به؟

قال الرجل إن في آخر الحلقة رجلا كان همس في أذني بالجواب فأجيب قال مالك للرجل: تأخر أنت، ومر صاحبك أن يتقدم.

وتقدم الشافعي، ودقق مالك النظر فيه، لقد مضت مدة طويلة منذ أن افترقا، ثم قال له مالك: أنت الشافعي؟

قال الشافعي: نعم، يا سيدي أنا تلميذك الرفي.

فضمه مالك إلى صدره، ولعله تمثل بقول الشاعر:

وقد يجمع الله الشيتين بعدما يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

وأحب مالك أن يباليغ في إكرام تلميذه وصديقه، فنزل من فوق كرسيه، وأمره أن يصعد فوقه، ويكمل الدرس.

وهكذا نصب مالك تلميذه الشافعي إماما، وحق له.

ولم يقصر الشافعي فيما عهد إليه، وكان عند حسن الظن به، لقد ألقى أربعمائة سؤال عقب عليها بأربعمائة جواب.

لقد بلغ الشافعي من العلم منزلة رفيعة، لم يكن التغرب في البلاد والضرب فيها طولا ووعرضا عبثا. لقد حصل في أثناء ذلك علما غزيرا ومعرفة واسعة.

وحانت صلاة المغرب، وصلى الشافعي مع الناس.

وأخذ مالك بيد الشافعي إلى المنزل.

ولكن ماذا رأى الشافعي؟ رأى دارا واسعة فارهة، عليها مظاهر العز والثراء لا علاقة بينها وبين تلك الدار التي رآها آخر مرة كان فيها بالمدينة. إن هذه الدار دار أمير أو ملك.

وبكى الشافعي كما بكى حين عاين دار محمد بن الحسن في الكوفة.

ولكن ما يبكيك الآن يا شافعي؟ لقد بكيت في الكوفة رثاء لأهل الحجاز، وإشفاقا على ما هم فيه من جذب وشقاء، والآن ماذا يبكيك بعد أن رأيت مظاهر النعمة الوارفة، والثراء الواسع؟؟

وعلى أي فقد يبكي الإنسان من الفرح كما يبكي من الحزن.

وظن مالك إلى ما يشغل بال الشافعي ويسيل دموعه، لقد خشى أن يكون أستاذه مالك قد مالت به الدنيا وجرفته إلى تيارها فانساق إليها مغلوبا على أمره، فبادر تلميذه بالكلام يقول له:

هل خفت يا أبا عبد الله أن أكون ممن باع الهدى بالضلالة واشترى بدينه دنياه؟ كلا يا بني، فإن الذي تراه أمام عينك إنما هو من حلال صرف، ليس به ذرة حرام أو شبهة. إنه من هدايا الأصحاب والأصدقاء، والنبى ﷺ يقول: «لو دعيت إلى ذراع أو كراع لاجبت، ولو أهدى إلى ذراع أو كراع لقبلت»<sup>(١)</sup>.

وقال ﷺ: «من آتاه الله رزقا من غير مسألة ورده فكأنما رده على الله تعالى».

وفى رواية: «من آتاه الله من هذا المال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وإنما هو رزق ساقه الله إليه»<sup>(٢)</sup>.

واطمأنت نفس الشافعي وأدرك أن شيخه مازال على الجادة وأن هذا النعيم الذي هو فيه إنما من فيض الله ونعمته. وحمدا لله على ذلك.

### مالك يصدق على الشافعي

قال مالك للشافعي: إن لى ثلثمائة خلعة من بز خراسان وقباطى مصر، وعندى عبيد كثير، كل ذلك هدية منى إليك. وفى صناديقى تلك خمسة آلاف دينار أخرج

(١) أخرجه أحمد عن أس.

(٢) أخرجه أحمد عن أبي هريرة.

زكاتها لك منى نصفها هدية .

جزاك الله خيرا يا مالك، ما أبرك وما أوفاك، وما أكرمك وما أسخاك!!

إن هذا العطاء لا يقدر عليه الملوك، وإن أعطى الملوك لا يعطوا إلا بسبب، ولا يصلوا أحدا إلا بهدف، هم يريدون بعباتهم تأليف القلوب وفك عقال الألسنة لتلهج بالحمد والثناء. ولكن مالكا لا هدف له من وراء عطائه إلا وجه الله. ولا هدف له إلا مراعاة وجه الأخوة ورباط الصداقة والمودة.

قال الشافعي لمالك: إنك موروث وأنا موروث فإن كنت قد أهديت فلا بد أن يخرج ما أهديته من ملكك ليكون في ملكي، فإن حضرني أجلى كان لورثتي دون ورثتك، وإن حضرك أجلك كان لورثتي دون ورثتك، ولم تغضب هذه الكلمة مالكا، ولكنه قابلها بابتسام، وقال للشافعي: أبيت إلا العلم.

فقال الشافعي: وها هناك ما يستعمل أفضل من العلم؟

واستجاب مالك للشافعي وأخرج كل ما أهداه إلى الشافعي فما بات إلا تحت يده.

وبعد أن صلى مالك والشافعي صلاة الفجر وعادا إلى المنزل وجدا أمام البيت هدايا من جياذ خراسان، وبغال فارهة من بغال مصر فاتجه مالك للشافعي يقول له أبشر يا شافعي، فهذا رزق جديد ساقه الله إليك.

وحاول الشافعي أن يبقى مالك لنفسه شيئا من ذلك، ولكنه قال: لقد آليت ألا أمتطى دابة في مدينة الرسول ﷺ.

### الشافعي يتوجه إلى مكة

وتوجه الشافعي بما معه من أحمال إلى مكة بعد أن ودع شيخه.

وأنفذ إلى أمه من يشرها بقدمه. فاستقبلته هي وقريبات لها وصواحب عزيزات عليها على أبواب مكة.

وجاء موكب الشافعي كأنه موكب ملك، وألقى بنفسه بين أحضان أمه التي

استقبلته بدموعها وأشواقها.

وتبادلته أحضان من معها من النساء اللاتي قلن له: كل فؤاد عليك أم فكان هذا أول كلام سمعه من امرأة في الحجاز.

وبعد أن انتهت مراسيم هذا الاستقبال، أخذ أهبطه لدخول مكة، ولكن أمه استوقفته قائلة: إلى أين يا محمد؟

فقال لها: إلى المنزل يا أمه.

فأجابته قائلة: هيهات هيهات، لقد خرجت من مكة فقيرا معدما، عائلا، لا تملك شيئا، الآن تعود إليها غنيا موسرا مترفا، تملأ ما صغيك بالفخر والتكاثر، وتثني عطفك بالزهو والخلاء على بنى عمك؟

لا يكون ذلك أبدا.

فقال الشافعي: وماذا أصنع يا أمه؟

فقالت: أقم مكانك هنا بالأبطح، وناد في الناس بإشباع الجائع وكسوة العارى، وحمل المنقطع لتظفر بثناء الدنيا وثواب الآخرة.

ولأن الدنيا لم تكن في ذهن الشافعي فلم يعترض. ولعل ذلك قد صادف هوى في نفسه، لقد زهد الله في الدنيا وأعفه عنها، وإن هذا لهو الزهد الحقيقي الذي يكون قد قدرة وسعة.

كان سليمان النبي عليه السلام، في يده خزائن الأرض وقد وهب الله له ملكا لا ينبغي لأحد من بعده، ومع ذلك كان يأكل خبز الشعير ويأتمم بالملح، ويقول: أخاف أن أشبع فأنسى جوع الفقير.

وكذلك كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي فتح الله على يديه خزائن كسرى وقبصر وكان يوزع العطاء على كل الناس، ويمد الموائد لهم ليطعمهم اللحم والسنن، ويقنع هو مع ذلك بكسرة من الخبز الجاف والملح الجريش.

ويسأل عن ذلك فيقول: إن الله تعالى نعى على أقوام وحرّمهم نعيم الآخرة لأنه

أَعْطَاهُمْ حِطَّهُمْ مِنْ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا، وَيَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَّذِينَ أُظْهِرْتُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ (الاحقاف: ٢٠).

تذكر الشافعي ذلك، فبقى مكانه، وأقبلت إليه وفود الجاذعين والمعوزين والمنقطعين فما زال يعطى ويوزع، حتى نفذ كل ما معه من مال وكراع ودواب وثياب.

لم يبق معه إلا خمسون ديناراً. وبغلة امتطى صهوتها، ومضى في طريقه إلى مكة نحو منزله، وهو يحمد الله تعالى على نعمة توفيقه.

إنه مع توزيع ثروته غنى بالله أولاً، وغنى بالعلم الذى حصله حتى ليؤثر أنه قال لأمه - فيما سمعته من شيوخى الأقدمى رحمه الله - حين سأله بماذا جئتني؟ قال لها: جئتك بملء رحاب الأرض علماً.

والعالم العامل بعلمه أغنى الأغنياء، فليس الغنى بالحقيقى بالثروة المالية ولكنه بالرضا والقناعة والعفة، وما أصدق الكلمة الخالدة: «القناعة كنز لا يفنى».

ومضى في طريقه فوق بغلته وسقط سوطه الذى يقرع به البغلة من يده فناولته إياه أمة من إماء مكة تحمل على كتفها قرية.

ورأى فى عينيها الحاجة، فأعطاهها خمسة دنانير من الخمسين التى بقيت معه، فنظرت إليه أمه نظرة ذات معنى. وقالت له: أتكافئ هذه الفتاة الفقيرة المحتاجة على جميل صنعته معك بهذا المبلغ اليسير؟

فأعطاهها بقية الخمسين، ودخل مكة خالى الوفاض كما تركها ذات يوم فى طريقه إلى المدينة.

كان قد مضى عليه فى رحلته هذه حوالى عشر سنين أو تزيد، وهى كفيلة بأن تتغير فيها أحوال كثيرة.

وبعد أن استقر به المقام فى بلده أخذ يمارس نشاطه العلمى الذى رحل من أجل تحصيله.

ولكنه لم يطل به المقام فى مكة. فقد كانت أمامه رحلة أخرى ولكنها فى هذه المرة سوف تكون إلى اليمن.



## الفصل الخامس التنافعي في اليمن

من أسباب التآمر ضده  
بين يدي الرشيد  
دعاء النجاة  
الخليفة ينبهر بعلم الشافعي  
مؤلفات في الفقه الشافعي





## الشافعي في اليمن

تختلف الروايات حول رحلة الشافعي إلى اليمن . .

فبينما يروى لنا الربيع المرادي أن الخليفة الرشيد اختاره عاملا في صدقات نجران .  
وقبل الشافعي هذه الوظيفة لأن تبعاتها أخف وأهول من تبعة القضاء، ثم هو لم  
يشأ أن يرد طلب الخليفة مرتين، لقد اعتذر عن القضاء فكيف يعتذر عن هذه الوظيفة؟  
فاتجه إلى اليمن لممارسة مهام وظيفته . .

نجد أن هناك رواية أخرى تقول: إن الشافعي ظل موصولا العلاقة والمدة بمالك في  
المدينة، يرسل إليه مالك بالمال بين الحين والحين، حتى توفي مالك سنة تسع وسبعين  
مائة، وانقطع المورد المالى الذى يصل إليه . . ففكر الشافعي فى عمل يرتزق منه .  
وتصادف أن جاء والى اليمن إلى الحجاز فحادثة بعض القرشيين فى أن يولى الشافعي  
على عمل فى اليمن فقبل .

وكانت للشافعي دار فى مكة رهنها ليجهز نفسه للسفر .

وسافر إلى اليمن فعلا، وهناك فى نجران بدأ يمارس عمله الموكول إليه فى همة  
ونشاط وأمانة .

ولكن ما هذا العمل؟ الأرجح أنه عمل يتصل بالقضاء حسبما يتضح بعد، وقد جاء  
ذلك فى رواية ذكرها أبو نعيم فى حلية الأولياء قال: إن هارون الرشيد ولى مصعب بن  
عبد الله القضاء باليمن فخرج الشافعي معه على أنه يعينه ويساعده فى عمله<sup>(١)</sup> .

(١) حلية الأولياء ٩ / ٧١ .

## محنة يتعرض لها

و شاءت الأقدار أن يتعرض الشافعى فى اليمن لمحنة قاسية لم يتوقعها .

أما سبب هذه المحنة فهى المكائد التى يتعرض لها المستقيمون من الناس، من أولئك الذين يستمرثون الفساد ويعيشون فى ظله، ويبدو أن مثل هذا الأسلوب الذى نشاهده فى أيامنا هذه ليس جديدا بل هو أمر له جذور عميقة ممتدة فى التاريخ .

كان الوالى فى اليمن يحب أن يصانعه الناس وينافقوه، ويحب أن يجامله المرءوسون ويتغاضوا عن مخالفته .

وقد استمرأ الوالى من مرءوسيه نفاقهم ومصانعتهم كما استمرأ المرءوسون ذلك ودرجوا عليه حتى أصبح ما يفعلونه هو القياس الذى يجب أن يسير عليه كل موظف ويتخذة مبدأ ومنهجاً، أما الصراحة والاستقامة فهما الشذوذ .

ولكن الشافعى صورة أخرى مخالفة لذلك تماما، إنه رجل مبادئ وسلوك نشأ على التقوى والصلاح . وتربى على الصراحة والشجاعة الأدبية، والصدق والوفاء . فهاله ما رأى عليه الناس من سلوك، وشق عليه أن يلمس فى موظفى الدولة سكوتا عن الحق وتقصيرا فى النصح وممارسة للباطل وجهرا بالنفاق والكذب والتسييح بحمد السلطان .

وهالهم هم أيضا أن يأتى إليهم رجل لا يدين بدينهم ولا يدور فى فلكهم ولا ينهج نهجهم، فقررُوا أن يزيحوه من طريقهم، وتواطأ على ذلك الوالى وحاشيته . لقد ضاقوا به ذراعا كما ضاق قوم لوط بلوط وأهله وقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ (النمل: ٥٦) .

ولقد أخبر الشافعى بنفسه عن ذلك قائلا: «كان الوالى إذا أتاهم صانعه فأرادونى على مثل ذلك فلم يجدوا عندى»<sup>(١)</sup> .

ولكن كيف يتخلصون منه؟ لا بد أن يكيدوا له، ويفتعلوا له الخطأ، ويقحموه فى مؤامرة هو برئ منها .

(١) الأئمة الأربعة د/ الشرباصى ص ١٢٥ .

وحدث أن خرج تسعة من العلويين في اليمن على خلافة الرشيد، فانتهاز الوالي ومن معه الفرصة فاتهموا الشافعي بأنه ضالع معهم.

إنها تهمة ظالمة من غير شك، وهي قائمة على غير أساس، فما كانت أخلاق الشافعي تسمح له بذلك، وما هو بطاعن على السلطان في شيء، وليس هناك مبررات تسمح له بالثورة على الخليفة أو الانتفاض عليه. بل إن نفسه مطمئنة إلى الخلافة العباسية راضية عنها.

ثم إن سلوكه في اليمن فوق الشبهات، لقد كان يدأب على طلب العلم، وقد انتهاز فرصة وجوده فيها وأخذ يتعرف إلى علمائها يجلس إليهم ويتفقه عليهم، ويتزود من علمهم، فعرف طريقه إلى مطرف بن مازن، وهشام بن يوسف، وعمر بن أبي مسلمة، ويحيى بن حسان، وهؤلاء من الأئمة الأعلام الذين لهم في قلوب الناس منزلة رفيعة ومكانة عليا.

إن كل ما يؤخذ عليه - إن كان يؤخذ - أنه كان لا يفرق في مجلسه إلى العلماء بين عالم وعالم، ، لأنه كان يرى أن العلم رحم بين أهله، لا يعرف التعصب أو التحزب، وقد جلس في اليمن إلى بعض علماء الشيعة، ولكن أي غضاضة في ذلك؟ إنه يطلب العلم لا المذهب. وقد جلس إلى بعض الذين يقولون بالإرجاء، فهل يعنى ذلك أنه أصبح مرجئا؟

ولكن الوالي كره إقامة الشافعي في اليمن لأنه لا يصانعه ولا يمالئه.

كره الوالي الشافعي لعدله واستقامته وتمسكه بالشريعة وإغلاقه باب المجاملة والتفادى والملق.

كيف يقبل الوالي موظفا عنده يقوم في المسجد ينه الناس إلى مقاومة الظالم ويلفت أنظارهم إلى أفعال الوالي ومخالفته لأحكام الشريعة، ويوضح لهم أن الحكم المثالي نراه في سيرة عمر بن الخطاب وعلى بن أبي طالب، وأضرابهما من الخلفاء والأمراء؟؟

وما أسرع أن أرسل الوالى للخليفة أن هناك ثورة توشك أن تشتعل، وأن أحد رءوسها الشافعي ومعه تسعة من العلويين.

وكل شيء يمكن أن يصبح موضع شك عند الحاكم ماعدا الشيء الذى يتعلق بالخروج على الحكم، إن الشك فى هذا الأمر يصبح حقيقة واقعة، وسرعان ما تنسج لها الأدلة والبراهين والبواعث والوسائل.

وطار صواب الخليفة فى بغداد وأرسل بضررة القبض على هؤلاء وإرسالهم إلى الخليفة مقيدين.

لقد ارتاع الخليفة حين قرأ رسالة واليه على نجران وارتاع أكثر حين قرأ عبارة وردت فى الرسالة حول الشافعي يقول فيها: إن هذا الرجل لا أمر لى معه ولا نهى فهو يعمل بلسانه مالا يقدر عليه المقاتل بسيفه.

وأسرع الوالى إلى تنفيذ أمر الخليفة، فقبض على الثوار التسعة الذين قيل إنهم من العلويين، وقبض أيضاً على الشافعي، وقيدوا جميعاً، وسيقوا فى قيودهم وأغلالهم إلى الرشيد فى بغداد.

### من أسباب التآمر ضده

وحدث أبو نعيم الأصفهاني أن من أسباب التآمر على الشافعي ما يحكيه قائلاً:  
قال الشافعي: وليت نجران وبها بنو الحارث وموالى ثقيف، فجمعتهم فقلت: اختاروا سبعة نفر منكم فمن عدلوه كان عدلاً، ومن جرحوه كان مجروحاً.

وهذا مثل كامل فى الاحتياط وإبراء الذمة ومراعاة العدل.

قال: فجمعوا لى سبعة نفر منهم، فجلست للحكم، فقلت للخصوم: تقدموا، فكان إذا شهد الشاهدان عندى التفت إلى السبعة، فإن عدلوا الشاهد كان عدلاً، وإن جرحوه قلت: زيدونى شهوداً.

هكذا كان يفعل فيما يعرض عليه من قضايا، فكان يحق الحق ويبطل الباطل حتى تنفس الناس الصعداء، وفرحوا بإقامة العدل.

وما زال كذلك حتى عرضت قضية تتعلق بضياح وأموال يستغلها من ليس له حق فيها – وربما كان الذى يستغلها لنفسه هو الوالى وهى ليست من حقه، وقد انتهز فرصة غياب صاحبها الأسمى فادعاها.

وقد استدعى الشافعى المستغل – أو وكلاءه – فأقروا بأن هذه الضياح والأموال ليست لنا، وإنما هى للمنصور بن المهدي فى أيدينا.

قال الشافعى: فقلت للكاتب: اكتب، وأقر فلان ابن فلان الذى وقع عليه حكمى فى هذا الكتاب: أن هذه الضيعة أو المال حكمت عليه فيه ليست له وإنما هى للمنصور بن المهدي فى يده.

قال الشافعى: فخرجوا إلى مكة فما زالوا يعملون – أى يتآمرون – حتى دفعت إلى العراق<sup>(١)</sup>.

### بين يدي الرشيد

سبق المتهمون إلى الرشيد فى العراق، ووصلوا بغداد، فكان الرشيد فى الرقة، فدفعوا إلى الرقة.

ومثلوا بين يدي الرشيد. والشافعى يهمهم بدعوات يبتهل بها إلى الله، وكانت هذه الدعوات هى:

### دعاء النجاة

قال الفضل بين الربيع: قلت للشافعى ما هذا الدعاء الذى كنت تدعو به وأنت مسوق الى الرشيد، فأمر بك قيودك بعد أن أن قتل من سبقك وهم بقتلك؟ فقال الشافعى: يا فضل، خذ منى واحفظ عنى:

«شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام – وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله

(١) احلية الأولياء ٧٦ / ٩ يتصرف فى العبارة.

هذه الشهادة، اللهم إنى أعوذ بنور قدسك وببركة طهارتك وبعظمة جلالك من كل عاهة وآفة، ومن طوارق الليل والنهار إلا طارقاً يطرق بخير، اللهم أنت غيائي بك أستغيث، وأنت ملاذى بك الود، وأنت عياذى بك أعوذ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة، وخضعت له أعناق الفراعنة، أعوذ بك من خزيك ومن كشف سترك، ونسيان ذكرك، والانصراف عن شكرك، أنا فى حرزك ليلى ونهارى، ونومى وقرارى، وطمعنى وأسفارى وحياتى وماتى، ذكرك شعارى، وثناؤك دثارى، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك - تشرىفا لعظمتك، وتكريما لسبحات وجهك، أجرنى من خزيك ومن شر عبادك، واضرب على سرادقات حفظك، وأدخلنى فى حفظ عنايتك وجد على منك بخير يا أرحم الراحمين".

قال الفضل: فكتبها، وكان الرشيد كثير الغضب على، فكان كلما هم أن يغضب به فيرضى، فهذا ما أدركت من بركة الشافعي<sup>(١)</sup>.

وقف المتهمون أمام الرشيد، وأخذ يوجه إلى كل منهم التهمة التى اتهم بها وسبق من أجلها إليه، ثم يحكم عليه بالقتل قبل سماع دفاعه، وهكذا طاحت رقاب ثمانية منهم - والشافعي ينظر إليهم واحدا واحدا.

وجاء التاسع فألقى الرشيد عليه التهمة، فأنكرها، ولكن الرشيد أمر بقتله، فقال الفتى المحكوم عليه بالإعدام، يا أمير المؤمنين اقتلنى، ولكن أمهلنى لحظات أكتب فيها رسالة لأمى وهى فى المدينة.

ولكن الرشيد لم يجب طلبه، وأمر بقتله.

لقد تملكه الغضب وسيطر عليه، ولم يختلج قلبه بخلجة رقة لهذا الفتى الذى أراد أن يتوسل أمامه بعاطفة الأمومة ليمهله بعض الوقت يكتب فيها كلمات يودع بها أمه، وطاحت رقبته كما طاحت رقاب الثمانية قبله.

كل هذا والشافعي واقف مغلول اليدين، والساقين، أشعث أغير إلا أنه ثابت القلب مطمئن النفس، كأن شيئا لم يحدث.

(١) حلية الأولياء ٧٦ / ٩.

ولئن أردنا أن نضرب المثل بأشجع الشجعان لما وجدنا خيرا من الشافعي في موقفه هذا، إنه محكوم عليه بالموت دون دفاع عن نفسه، والأمر جد لا هزل فيه، تشهد له هذه الدماء الجارية، والرءوس الطائحة والأجساد الهامدة، والسيوف المسلولة، والنطاق الممددة، وذلك الغضب البادي على وجه خليفة حاكم بأمره، حوله حرس شداد، وموت بالمرصاد.

وأخيرا جاء الدور على الشافعي. نظر الرشيد إلى الشافعي نظرة كلها حنق وغيظ، وكان الرشيد أراد أن ينهي هذا المشهد الدامي ليستريح. ولكن الشافعي بادر الرشيد قبل أن ينطق بكلمة فقال: «السلام عليك يا أمير المؤمنين وبركاته».

فلم يملك الرشيد إلا أن يرد السلام، فقال: «وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، بدأت بسنة لم تؤمر بإقامتها، ورددنا عليك فريضة قائمة بأاتها، ومن العجيب أن تتكلم في مجلس بغير أمرى».

ونلاحظ أن الشافعي في سلامه أسقط «رحمة الله» ولكن الرشيد أضافها في رده، وكان الشافعي يقصد إلى هذا.

فقال الشافعي: إن الله تعالى قال في كتابه العزيز: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ (النور: ٥٥). وهو الذي إذا وعد وفي، فقد مكنك في أرضه، وأمنتى بعد خوفى، حيث رددت على السلام بقولك: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته» فقد شملتني رحمة الله بفضلك يا أمير المؤمنين.

وكانت هذه الكلمات من الشافعي مؤذنة بانحلال عقدة الغضب في نفس الرشيد فقد بدأ يتحدث بكلام خال من الحدة والعنف، الذي كان مسيطرا عليه قبل ذلك.

قال الرشيد مخاطبا الشافعي: وما عذرک من بعد أن ظهر أن صاحبک — يريد بذلك الثائر العلوي — الذى طغى علينا وبغى واتبعه الأردلون، وكنت أنت الرئيس عليهم؟

قال الشافعي: أما وقد استنطقتنى يا أمير المؤمنين فسأتكلم بالعدل والإنصاف، لكن

الكلام مع ثقل الحديد صعب، فإن جدت على بفكه أفصحت عن نفسي، وإن كانت الأخرى فيدك العليا، ويدي السفلى والله غني حميد.

وهنا لانت عريكة الرشيد، وانطفأ غضبه، فأمر بكل الحديد وأجلسه.

قال الشافعي: حاشا لله يا أمير المؤمنين أن أكون ذلك الرجل الذي وصفت، لقد قال الله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَيَّ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ (الحجرات: ٦).

لقد أفك المبلغ فيما بلغك، وإن لى حرمة الإسلام، وذمة النسب، وكفى بهما وسيلة، وأنت أحق من أخذ بكتاب الله تعالى - أنت ابن عم رسول الله ﷺ - الذائد عن دينه، المحامي عن سنته.

وأنا يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي، وإنما أدخلت في القوم بغيا على، وأنا رجل من بنى المطلب بين عبد مناف، أنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع بن السائب. فقاطعه الرشيد: أنت محمد بن إدريس؟ وكان الرشيد تذكر موقفه السابق معه.

قال الشافعي: نعم، ولى مع ذلك حظ من العلم والفقه، والقاضى يعرف ذلك، ونظر إلى محمد بن الحسن.

وكان محمد بن الحسن يجلس بجوار الرشيد، فقال الرشيد: ما ذكرك لى محمد بن الحسن، ثم التفت إلى القاضى وسأله: يا محمد ما يقول هذا - أهو كما يقوله؟

فقال محمد: إن له من العلم شأنا كبيرا، وليس الذى رفع عليه من شأنه.

قال الرشيد: فخذة حتى أنظر فى أمره.

وهكذا نجا الشافعي.

### الخليفة ينبهر بعلم الشافعي

لقد كان الشافعي لبقا فى دفاعه عن نفسه، وفى بعض الروايات أن الشافعي قال للرشيد: مهلا يا أمير المؤمنين، فإنك الداعى وأنا المدعو، وأنت القادر على ما تريد



منى، ولست القادر على ما أريد منك، يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين أحدهما يرانى أخاه، والآخر يرانى عبده، أيهما أحب إلى؟

فقال الرشيد: الذى يراك أخاه.

قال الشافعى: فذاك أنت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد على ونحن ولد المطلب، فأنتم ولد العباس تروننا إخوانكم، وهم يروننا عبيدهم.

وهنا يهدأ الرشيد، ويسرى عنه، ويستوى جالسا، وتبدأ محاوراة علمية طريفة تشهد بمهبة الشافعى العلمية، ومقدرته المعرفية.

جاء فى حلية الأولياء<sup>(١)</sup>: أن أمير المؤمنين جمع فى مجلسه بين الشافعى وبين بشر الميسى، وقال بشر للرشيد: يا أمير المؤمنين، دعنى وإياه، فقال هارون: شأنك وإياه.

بدأ بشر الحوار فقال للشافعى: أخبرنى ما الدليل على أن الله تعالى واحد؟

فقال الشافعى: يا بشر ما تدرك من لسان الخواص فأكلمك على لسانهم، إلا أنه لا بدلى أن أجيبك على مقدارك من حيث أنت.

الدليل على أن الله واحد: اختلاف الأصوات فى المصوت إذا كان المحرك واحدا دليل على أنه واحد.

وعدم الضد فى الكمال على الدوام دليل على أنه واحد.

وأربع نيرات مختلفات فى جسد واحد، متفقات على ترتيبه فى استفاضة الهيكل دليل على أن الله تعالى واحد.

وأربع طبائع مختلفات فى الخافقين أضداد غير أشكال، مؤلفات على إصلاح الأحوال دليل على أن الله تعالى واحد.

وعدم الضد فى الكمال على الدوام دليل على أنه واحد.

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي

(١) يرى بعض الرواة أن الشافعى لم يجتمع مع بشر فى مجلس الرشيد، وقد نقلنا الخبر عن الحلية ٩ / ٨٣.

الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿البقرة: ١٦٤﴾.

كل ذلك دليل على أن الله تعالى واحد لا شريك له.

قال بشر: وما الدليل على أن محمدا ﷺ رسول الله؟

قال الشافعي: الدليل على ذلك القرآن المنزل، وإجماع الناس عليه، والآيات التي لا تليق بأحد غيره، وتقدير المعلوم في كون الإيمان بدليل واضح دليل على أنه رسول الله، لا بعده مرسل يعزله.

وامتحانك إياي بهذين السؤالين، وقصدك إياي بهما دون فنون العلوم دليل على أنك حائر في الدين، تائه في الله - عز وجل - ولو وسعني السكوت عن جوابك لاخترتة.

قال بشر: ادعيت الإجماع، فهل تعرف شيئا أجمع الناس عليه؟ قال الشافعي: نعم، أجمعوا على أن هذا الحاضر أمير المؤمنين، فمن خالفه قتل. فضحك هارون الرشيد.

ثم انبسط الشافعي في الكلام فتكلم بكلام حسن، فأعجب به الرشيد وقربه من مجلسه.

قال الرشيد للشافعي: كيف بصرك بكتاب الله تعالى؟

فقال الشافعي: عن أي كتاب تسألني؟ إن الله سبحانه وتعالى أنزل ثلاثة وسبعين كتابا على خمسة أنبياء، وأنزل كتابا موعظة لنبى وحده فكان سادسا، أولهم آدم ﷺ وعليه أنزل ثلاثين صحيفة كلها أمثال، وأنزل على أخنوخ وهو إدريس ﷺ ست عشرة صحيفة كلها حكم، وفيها علم الملكوت الأعلى، وأنزل على إبراهيم ﷺ، ثمانى صحف كلها حكم مفصلة، فيها فرائض ونذر، وأنزل على موسى ﷺ -

التوراة كلها تخويف وموعظة، وأنزل على عيسى عليه السلام الإنجيل لبين لبني إسرائيل ما اختلفوا فيه من التوراة، وأنزل على داود عليه السلام كتابا كله دعاء وموعظة لنفسه حتى يخلصه به من خطيئته.

وأنزل على محمد عليه السلام الفرقان وجمع فيه سائر الكتب فقال: ﴿تَبَيَّنَّا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَى وَرَحْمَةً﴾ (النحل: ٨٩). ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتُهُ ثُمَّ فَصَّلْتُ﴾ (مود: ١).

فقال له الرشيد: قصدى كتاب الله الذى أنزله على ابن عمى رسول الله عليه السلام الذى دعانا إلى قبوله، وأمرنا بالعلم بمحكمه والإيمان بمتشابهه.

فقال الشافعى: عن أى آية تسألنى؟ أعن محكمه أو متشابهه؟ أم تقديمه وتأخيرها؟ أم ناسخه ومنسوخه؟ أم عما ثبت حكمه وارتفعت تلاوته أم تثبتت تلاوته وارتفع حكمه؟ أم عما ضربه الله مثلا، أم عما ضربه الله اعتبارا؟ أم عما أحصى فيه فعال الأمم السالفة، أم ما قصدنا الله به من فعله تحذيرا؟

قال الرشيد: ويحك يا شافعى، أفكل هذا يحيط به علمك؟

قال: يا أمير المؤمنين، المحنة على القائل كالنار على الفضة، تخرج جودتها من رداءتها، فهأنذا يا أمير المؤمنين فامتحن.

فقال الرشيد: ما أحسن ما قلت، وسأسئلك عنه بعد هذا المجلس إن شاء الله.

ثم قال الرشيد: وكيف بصرك بسنة رسول الله عليه السلام؟

قال الشافعى: أعرف ما يخرج على وجه الإيجاب ولا يجوز تركه، كما لا يجوز ترك ما أوجبه الله تعالى فى القرآن، وما خرج على وجه التأديب، وما خرج الخاص لا يشرك فيه العام، وما خرج على وجه العموم يدخل فيه الخصوص، وما خرج جوابا عن سؤال سائل ليس لغيره استعماله، وما خرج منه ابتداء لآزدهام العلوم فى صدره، وما فعله فى خاصة نفسه، واقتدى به الخاصة والعامه، وما خص به نفسه دون الناس كلهم مع ما لا ينبغى ذكره، لأنه أسقطه عليه السلام عن الناس قال الرشيد: أخذت الترتيب يا شافعى لسنة رسول الله عليه السلام فأحسنتم موضعها لوصفها، فما حاجتنا إلى التكرار

عليك، ونحن نعلم ومن حضرنا أنك حامل نصابها مقلا بها؟

فقال الشافعي: ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، وإنما شرفنا برسول الله ﷺ فيك.

قال الرشيد: كيف بصرك بالعربية؟

قال الشافعي: هي مبدؤنا وطباعنا بها قومت، وألستنا بها جرت، فصارت كالحياة لا تتم إلا بالسلامة، وكذلك العربية لا تسلم إلا لأهلها، ولقد ولدت وما أعرف اللحن، فكنت كمن سلم من الداء ما سلّم له الدواء، وعاش بكامل الهناء، وبذلك شهد لى القرآن — قال تعالى — ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ (إبراهيم: ٤) يعنى قريشا وأنت وأنا منهم يا أمير المؤمنين، والعنصر نظيف، والجراثومة منيعة شامخة، أنت أصل ونحن فرع، وهو ﷺ مفسر ومبين، به اجتمعت أحسابنا، فنحن بنو الإسلام، وبذلك ندعى وننسب.

فقال له الرشيد: صدقت، بارك الله فيك.

ثم قال له: كيف معرفتك بالشعر؟

قال الشافعي: إنى لأعرف طويله وكامله، وسريعه ومجته، ومنسرحه.

## الإمام السيوطي

ومن العلماء الأئمة المجتهدين الذين تقلدوا مذهب الإمام الشافعي وناصروه ثم اجتهدوا فيه، الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي.

هو الإمام الحافظ إمام المجتهدين والمجددين فى عصره أبو الفضل عبد الرحمن ابن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب ابن محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضيرى الأسيوطى.

ولد أبوه باسيوط — ومن هنا جاءت نسبه — أما هو فقد ولد سنة تسع وأربعين وثمانائة، ونشأ بالقاهرة وتعلم، وكانت نشأته فى بيت علم وتقوى.

وتتلمذ لكثير من الشيوخ الأجلاء في عصره، وقد ترجم السيوطى لنفسه ترجمة وافية تناولت مختلف مؤلفاته فى كتابه «حسن المحاضرة».

كان شيخه فى الفقه الإمام المجتهد شيخ الإسلام علم الدين البلقينى لازمه ولازم ولده من بعده، وأجازه بالتدريس والإفتاء وحضر له درسه حين بدأ بالتدريس وأثنى عليه.

وللسيوطى مؤلفات فى الفقه الشافعى منها: الأزهار الغضة فى حواشى الروضة، والحواشى الصغرى، ومختصر الروضة، ومختصر التنبيه، والأشباه والنظائر، وتشنيف الأسماع بمسائل الإجماع، والجامع فى الفرائض، وغير ذلك من المؤلفات.

كان السيوطى دائرة معارف له فى كل فن مؤلف وأكثر، وقد بلغ مرتبة الاجتهاد قال عنه الحافظ التيجانى: لا شك أن الحافظ السيوطى من المجددين، ويصح أن يكون فى عصره غيره من المجددين، وقال أبو الحسنات محمد بن عبد الحى اللكنوى فى حواشيه على الموطأ بعد أن ذكر السيوطى: وتصانيفه كلها مشتملة على فوائد لطيفة وفرائد شريفة، تشهد كلها بتبحره وسعة نظره ودقة فكره، وأنه حقيق أن يعد من مجددى الملة المحمدية فى بدء المائة العاشرة.

توفى السيوطى سنة إحدى عشرة وتسعمائة ودفن بالقاهرة فى القرافة المواجهة لمسجد السيدة عائشة - رضي الله عنها - فى ضريح مقام فى شارع يحمل اسمه وفوقه لوحة تحمل اسمه.

هناك علماء لا حصر لهم كان لهم أثر مشهود فى الفقه الشافعى ولهم مؤلفات عظيمة فى هذا المذهب.

### مؤلفات فى الفقه الشافعى

ومن أهم هذه المؤلفات كتاب «الروضة فى الفروع» للإمام النووى.

واسمه: روضة الطالبين وعمدة المتقين.

مؤلفه: الإمام محى الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووى المتوفى سنة ست

وسبعين وستمائة .

ولهذا الكتاب عناية كبرى من جانب علماء الشافعية، فقد أقبلوا على تهذيبه واختصاره وقد هذب النووى نفسه، واختصره كثير من العلماء .

ومن هذه المختصرات: مختصر الشيخ برهان الدين إبراهيم بن موسى الكركي الشافعي المتوفى سنة ثلاث وخمسين وثمانمائة .

وقد شرح كثير من العلماء أيضا كتاب الروضة، وعلقوا عليه، ونظموه شعرا وهذا يدل على أهمية هذا الكتاب بالنسبة للفقهاء الشافعي .

ومن هذه الكتب أيضا:

### كتاب الوجيز في الفروع

وقد ألف هذا الكتاب الإمام أبي حامد الغزالي المتوفى سنة خمس وخمسين أخذه من البسيط والوسيط له، وزاد فيه أمورا وهو كتاب جليل يعد عدة في الفقه الشافعي . .

وقد اعتنى به الأئمة فشرحه الفخر الرازي المتوفى سنة ست وستمائة والقاضي سراج الدين أبو الشاء المتوفى سنة اثنتين وثمانين وستمائة، والإمام أبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزويني الرافعي الشافعي المتوفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة وغيرهم من العلماء .

### كتاب المذهب في الفروع

ومن كتب الفقه الشافعي أيضا كتاب المذهب في الفروع للشيخ الإمام أبي إسحاق إبراهيم بن محمد الشيرازي المتوفى سنة ست وسبعين وأربعمائة، بدأ في تصنيفه سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وفرغ منه سنة تسع وستين وأربعمائة .

وهو كتاب جليل القدر، اعتنى به فقهاء الشافعية، وشرحوه وأول من شرحه أبو إسحاق إبراهيم بن منصور العراقي المتوفى سنة ست وتسعين وخمسمائة في عشرة أجزاء، ثم شرحه الإمام ضياء الدين أبو عمرو عثمان بن عيسى الهدايات المتوفى سنة

اثنتين وأربعين وستمائة في عشرين مجلدا.

ثم شرحه النووى المتوفى سنة ست وسبعين وستمائة وبلغ فيه إلى كتاب الربا، وأكمله بعده الشيخ تقي الدين السبكي المتوفى سنة ست وخمسين وسبعمائة، فلم يوافق الأصل وأتمه غيره.

واختصره كثير من العلماء وعلقوا عليه بحواشى مفيدة، مما يدل على منزلة هذا الكتاب وأثره.

### كتاب التنبيه

ومنها كتاب التنبيه فى فروع الشافعية للشيرازى أيضا، وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية كما صرح بذلك النووى نى تهذيبه امتدحه بعض الشعراء بقوله:

يا كوكبا ملأ البصائر نوره      من ذا رأى لك فى الأنام شبيها  
كانت خواطرننا نياما برهة      فرزقن من تنبيهه تنبيها

وقد شرحه كثير من العلماء ذكرهم حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون وذكر أسماء هذه الشروح، كما اختصره جماعة منهم، ونظمه شعرا بعضهم، وهذا يدل على أهمية هذا الكتاب وفضله.

والحديث عن مؤلفات العلماء فى الفقه الشافعى يطول، وقد أفرد صاحب كشف الظنون ثبنا بهذه المؤلفات حرره على ترتيب الحروف الهجائية، أورد فى كل حرف عدة مؤلفات.

وعلق على ذلك بيان الفرق بين مذهب الشافعى القديم والجديد فقال: إذا أطلق القديم يراد به ما صنفه الشافعى بالعراق مثل كتاب «الحجة» وهو مجلد ضخم قاله فى المهمات، وكذلك ما أفتى به، ورواة القديم جماعة - منهم أبو ثور، والزعفرانى - وهو أثبت الرواة - والكرابيسى، وأحمد بن حنبل.

وإذا أطلق الجديد فالمراد به ما صنّفه أو أفتى به فى مصر، وهو يشتمل على كتب كثيرة، ورواة المذهب الجديد أشهرهم تسعة هم البويطى، الربيع بن سليمان الجيزى، والربيع بن سليمان المرادى المؤذن، وهو المراد عند الإطلاق، وهو الذى بوب كتاب الأم فنسب إليه، وحرملة، والحميدى، ومحمد بن عبد الحكم، والمزنى، ويزيد بعضهم عبد الله بن عبد الحكم.



## الفصل السادس

# فقه الشافعي ومؤلفاته

الأسس التي يقوم عليها الفقه الشافعي  
علم أصول الفقه  
موضوع كتابة الرسالة  
الأسلوب الحوارى  
من مؤلفات الشافعي  
مفهوم الاستصحاب  
مؤلفات الشافعي فى الحديث  
وفاته رضى الله عنه



## فقه الشافعى ومؤلفاته

### الأسس التى يقوم عليها الفقه الشافعى

يقوم الفقه الشافعى على أصول لم يغفل بعضها أصحاب المذاهب السابقة فالكتاب والسنة أصلان أساسيان فى فقه الأحناف والمالكية.

والقياس عول عليه الأحناف، وسار المالكية فيه بقدر.

والإجماع قصد به المالكية عمل أهل المدينة.

ولكن الفقه الشافعى يقوم على هذه المبادئ الأربعة: الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وقد أضاء الشافعى المصاييح حول هذه الأصول بما وضعه من فن «أصول الفقه» وهو فن لم يسبق إليه، وكتب فى ذلك كتاب اسمه «الرسالة».

كان الإمام عبد الرحمن بن مهدي ويكنى أبا سعيد، وكان ثقة كثير الحديث، ولد سنة خمس وثلاثين ومائة وتوفى بالبصرة سنة ثمان وتسعين ومائة<sup>(١)</sup> قد كتب للشافعى وهو بمكة أن يرسل رسالة يوضح له فيها معانى القرآن ويجمع فنون الأخبار فيه وحجية الإجماع، وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب «الرسالة» وقد أعاد الشافعى كتابة الرسالة بعد مجيئه إلى مصر. وقد اختفى هذا المخطوط من دار الكتب المصرية كما نشرت الصحف تبلى أختفى كثير من المخطوطات فإلى الله المشتكى.

ذلك أن الإمام الشافعى كانت له بعض آراء فقهية غيرها بعد مجيئه إلى مصر.

(١) الطبقات الكبرى ٧ / ٣٣٠.

وموضوع الرسالة هو موضوع أصول الفقه الذي أصبح فيما بعد علما قائما بذاته،  
يدرس في الكليات المتخصصة، ويعنى به أهل الفقه والقانون، ومعنى ذلك أن الشافعي  
هو مبتكر هذا الفن.

## علم أصول الفقه

جاء في الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية نقلا عن مصادر مختلفة:

أصول الفقه هو العلم بالقواعد التي يتوصل بها إلى الفقه، وعلم أصول الفقه هو  
علم يتعرف منه استنباط الأحكام الشرعية الفرعية عن أدلتها الإجمالية اليقينية.

وموضوعه: الأدلة الشرعية الكلية من حيث إنها كيف تستنبط منها الأحكام  
الشرعية.

ومبادؤه مأخوذة من العربية وبعض العلوم الشرعية، كأصول الكلام والتفسير  
والحديث، وبعض العلوم العقلية.

والغرض منه تحصيل ملكة استنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها الأربعة أعنى  
الكتاب والسنة والإجماع والقياس.

وفائدته استنباط تلك الأحكام على وجه الصحة.

والحوادث وإن كانت متناهية في نفسها بانقضاء دار التكليف، إلا أنها لكثرتها  
وعدم انقطاعها ما دامت الدنيا غير داخلية تحت حصر الحاصرين، فلا تعلم أحكامها  
جزئيا، ولما كان لكل عمل من أعمال الإنسان حكم من قبل الشارع منوط بدليل يخصه  
جعلوها قضايا موضوعاتها أفعال المكلفين، ومحمولاتها أحكام الشارع من الوجوب  
وأخوته، فسموا العلم المتعلق بها الحاصل، من تلك الأدلة فقها، ثم نظروا في تفاصيل  
الأدلة والأحكام وعمومها، فوجدوا الأدلة راجعة إلى الكتاب والسنة والرجوع  
والقياس، ووجدوا الأحكام راجعة إلى الوجوب والندب والحرمة والكره والإباحة  
وتأملوا في كيفية الاستدلال بتلك الأدلة على تلك الأحكام إجمالا من غير نظر إلى  
تفاصيلها إلا على طريق التمثيل، فحصل لهم قضايا كلية متعلقة بكيفية الاستدلال بتلك

الأدلة على الأحكام إجمالاً، وبيان طرفه، وشرائطه ليتوصل بكل من تلك القضايا إلى استنباط كثير من تلك الأحكام الجزئية عن أدلتها التفصيلية، فضبطوها، ودونها وأضافوا إليها من اللواحق، وسموا العلم المتعلق بها أصول الفقه.

وهذا العلم فرع لعلم أصول الدين، فكان من الضرورة أن يقع التصنيف فيه على اعتقاد مصنف الكتاب..

وقال ابن خلدون في مقدمته: أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدراً وأكثرها فائدة، وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف، وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن، ثم السنة المبينة له، فعلى عهد النبي ﷺ كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن، ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس، ومن بعده تعذر الخطاب الشفاهي، وإن حفظ القرآن بالتواتر.

وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله عليهم على وجوب العلم بما يصل إلينا منها قولاً وفعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه، ثم ينزل الإجماع منزلة الكتاب والسنة، لإجماع الصحابة على النكير على مخالفهم، ولا يكون ذلك إلا عن مستند، لأن مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة، فصار الإجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات.

ثم نظرنا في طرق استدلالات الخلف والسلف بالكتاب والسنة فإذا هم يقيسون الأشباه بالأشباه منهنما، وينظرون الأمثال بالأمثال بإجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك، فإن كثيراً من الوقائع بعده ﷺ لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت، وألحقوها بما نص عليه بشروط في ذلك الإلحاق تصحح تلك المساواة بين الشبهين أو المثليين، حتى يغلب على الظن أن حكم الله تعالى فيهما واحد، وصار ذلك دليلاً شرعياً بإجماعهم عليه هو القياس وهو رابع الأدلة.

واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة، وإن خالف بعضهم في الإجماع والقياس إلا أنه شذوذ.

كان أول من ألف في هذا الفن كما سبقت الإشارة - هو الإمام الشافعي، وفتح الطريق لمن جاء بعده، فألفت فيه كتب لا حصر لها.

كان الشافعي قد تحدث في رسالته عن الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس، ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا القول فيها، وكتب المتكلمون أيضا كذلك إلا أن كتابة الفقهاء فيها أمس بالفقه وأليق بالفروع لكثرة الأمثلة والشواهد وبناء المسائل فيها على النكت الفقهية (١).

## موضوع كتاب الرسالة

يدور موضوع الكتاب بعد مقدمتها على:

❖ الحديث عن البيان، والمقصود به البيان الديني، الذي يبين الله للناس ما افترضه عليهم من الفرائض، وما نهاهم عنه من نواه، وكذلك ما جاءت به السنة الشريفة في ذلك. من الفرائض ما جاء نصا - كالصلاة والزكاة والصيام والحج.

ومن النواهي ما جاء نصا كذلك - كتحرير الفواحش ما ظهر منها وما بطن ومن الفرائض ما جاءت مجملة في القرآن الكريم، ثم فصلها النبي ﷺ بستته. كالصلاة مثلا فقد نزل فرضها مجملا، ثم فصلها النبي ﷺ بقوله: «صلوا كمل رأيتموني أصلى». وتحدث في رسالته عن الناسخ والمنسوخ، وقال: إن القرآن قد نسخه القرآن ولا تنسخه السنة، إلا أن السنة قد تبين نسخ القرآن كما تبين القرآن، والسنة تنسخها السنة، واستشهد على نسخ القرآن بالقرآن بقوله تعالى ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾

(الرعد: ٣٩)

وقوله تعالى ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾

(يونس: ١٥).

ومن أبواب الرسالة باب العلم، وذكر فيه أن العلم - علم عامة لا يسع المسلم المكلف جهله مثل الصلوات الخمس وصوم رمضان وزكاة النصاب وحج المستطع -

(١) الموسوعة الذهبية للعلوم الإسلامية د/ فاطمة المحجوب ٥ / ٢٢٨ وما بعدها.

وعلم خاصة وهو ما ينوب العباد من فروع الفرائض وما يخص به من الأحكام وغيرها مما ليس فيه نص كتاب ولا في أكثره نص سنة، وإن كانت في شيء منه سنة فإنما هي من الأخبار الخاصة لا أخبار العامة، وما كان منه يحتمل التأويل ويستدرك قياساً.

وهذه درجة من العلم ليست مبلغها العامة ولم يكلفها كل الخاصة.

وأفاض في رسالته في شرح مفهوم العلم ودلالته، ثم تحدث بعد ذلك عن الإجماع، ثم عن القياس وذكر حجية كل منهما.

فقال عن الإجماع: أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله ﷺ فكما قالوا إن شاء الله، وأما ما لم يحكوه فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله ﷺ واحتمل غيره، فكنا نقول بما قالوا اتباعاً لهم، ونعلم أنه إذا كانت سنن رسول الله ﷺ لا تعزب عن عامتهم وقد تعزب عن بعضهم، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله ﷺ ولا على خطأ إن شاء الله.

ثم ذكر دليلاً فقال - عن سفيان: أن عمر بن الخطاب خطب بالجالية فقال: إن رسول الله ﷺ قام فينا كمقامي فيكم فقال: «أكرموا أصحابي ألا فمن سره بحجة الجنة فليزلم الجماعة فإن الشيطان مع الفذ، وهو من الاثنين أبعد».

قال الشافعي: وليس المقصود من الاجتماع اجتماع الأبدان لأنه لا يصنع شيئاً، وإنما المقصود العمل بما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما.

وقال عن القياس:

هل القياس هو الاجتهاد أم هما مفترقان؟ وأجاب بأنهما اسمان لمعنى واحد، فكل ما نزل بمسلم فقيه حكم لازم، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة وعليه اتباعه إذا كان فيه بعينه حكم، وإذا لم يكن فيه حكم بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد، والاجتهاد هو القياس.

إلا أن شرط الذي يقبس - أي يجتهد - أن يكون عالماً بأحكام الكتاب الحكيم فرضه، وندبه، وناسخه، ومنسوخه، وعامه، وخاصه، وإرشاده، ويستدل على ما

يحتمل التأويل منه بسنن رسول الله ﷺ فإن لم يجد سنة فبإجماع المسلمين فإن لم يكن بإجماع فبالقياس .

ولا يصح له أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب .

ولا يصح لأحد أن يقيس إلا إذا كان صحيح العقل، يعرف الفرق بين المشتبه، وعليه ألا يتعجل القول، بل يثبت، وعليه ألا يمتنع عن الاستماع ممن خالفه .

### الأسلوب الحوارى

والشافعى يلجأ فى رسالته إلى الأسلوب الحوارى، وهو أسلوب يبعث على التشويق والمتابعة .

ومن أمثلة ذلك ما جاء فى باب القياس :

تمثل صاحباً يحاوره . فقال هذا صاحب : فمن أين قلت يقال بالقياس فيما لا كتاب فيه ولا سنة ولا إجماع؟ أفى القياس نص خبر لازم؟

فرد عليه الشافعى بقوله — قلت : لو كان فى القياس نص كتاب أو سنة قيل فى كل ما كان نص كتاب : هذا حكم الله، وفى كل ما كان نص سنة : هذا حكم رسول الله ﷺ ولم نقل له : قياس .

قال : فما القياس؟ أهو الاجتهاد أم هما مفترقان؟

قلت : هما اسمان لمعنى واحد .

قال : فما جماعهما؟

قلت : كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، أو على سبيل الحق فيه دلالة موجودة، وعليه إذا نزل فيه بعينه حكم وجب اتباعه، وإذا لم يكن فيه بعينه طلب الدلالة على سبيل الحق فيه بالاجتهاد، والاجتهاد القياس .

وهكذا يمضى فى مثل هذا الأسلوب الحوارى الذى يشد اهتمام القارئ ويصل به



إلى درجة الاقتناع بما يقول ويقرر .

لقد أجمع الناس على استحسان هذه الرسالة والإعجاب بها. أطلق عبد الرحمن بن مهدي الذي حررت له الرسالة على الشافعي بعد أن قرأها لقب ناصر السنة وقال: لما نظرت الرسالة للشافعي أذهلتني لأنني رأيت كلام رجل عاقل فصيح ناصح<sup>(١)</sup>.

وقال المزني عنها: قرأت الرسالة خمسمائة مرة ما من مرة إلا استفدت منها فائدة جديدة، وقال أيضا أنا أنظر في الرسالة من خمسين سنة ما أعلم أنني نظرت فيها مرة إلا استفدت منها شيئا لم أكن عرفته<sup>(٢)</sup>.

إنها كما يقول د/ مصطفى الشكعة: علم جديد في سماء المعرفة الإسلامية، وهي عمل فقهي حديثي قلما يتوافر له مثيل من حيث المنهج أو المحتوى أو طريقة معالجة القضايا وأسلوب استنباط الأحكام.

### من مؤلفات الشافعي

الشافعي موسوعة علمية له مؤلفات شامخة في مختلف الميادين، وقد عرفنا أنه أول من وضع علم أصول الفقه في كتاب الرسالة التي ذكرناها.

وإلى جانب غلبة الفقه على الشافعي فهو أيضا صاحب حديث، يقول د/ مصطفى السباعي عنه: للشافعي - عدا مكانته الفقهية - مكانة ممتازة عند أهل الحديث، فهو الذي وضع قواعد الرواية، ودافع عن السنة دفاعا مجيدا، وأعلن رأيه الذي يخالف فيه مالكا وأبا حنيفة وهو أن الحديث متى صح بالسند المتصل إلى النبي ﷺ يجب العمل به من غير تقييده بموافقة عمل أهل المدينة كما اشترط مالك، أو بالشروط المتعددة التي اشترطها أبو حنيفة.

وبذلك كان في جانب أهل الحديث مما جعلهم يطلقون عليه لقب «ناصر السنة» وفي الحق أن «رسالته» وبحوثه في «الأم» من أئمن ما ألفه العلماء دفاعا عن حجية السنة ومكانتها في التشريع بأسلوب قوى جل أدلة دامغة قاهرة.

(١) الأئمة الأربعة د/ مصطفى الشكعة ص ٦٤٧.

(٢) الأئمة الأربعة د/ أحمد الشرباصي ص ١٢٦.

ولا ينكر كل من كتب في مصطلح الحديث وفي مباحث السنة والكتاب من علماء الأصول أنه مدين للشافعي فيما كتب، ومن هنا كان صحيحاً ما يقوله محمد بن الحسن: «أن تكلم أصحاب الحديث يوماً بلسان الشافعي» وما قال الزعفراني: «كان أصحاب الحديث رقوداً فأيقظهم الشافعي».

ومن هنا أجله علماء الحديث وذكره بخير فقال فيه أحمد بن حنبل:

«ما أحد مس بيده محبرة ولا قلم إلا وللشافعي في رقبته منة» ويقول: «ما علمنا المجمل من المفسر، ولا ناسخ حديث رسول الله ﷺ من منسوخه حتى جالسنا الشافعي».

وقال الكرايبيسي: «ما كنا ندرى ما الكتاب ولا السنة حتى سمعناه من الشافعي وما رأيت مثل الشافعي، ولا رأى الشافعي مثل نفسه، وما رأيت أفصح منه وأعرف».

وكانت أصول مذهب الشافعي مبنية على أصول مذهب الإمامين السابقين - العمل بالكتاب والسنة والقياس والإجماع إلا أن عمل الشافعي بالسنة كان أوسع دائرة منهما، وذلك من ناحية الأخذ بحديث الآحاد، وكان أضيق دائرة من ناحية رفض العمل بالمرسل إلا إذا كان مرسل كبار التابعين. كسعيد بن المسيب مثلاً.

ومن الأصول التي اعتمد عليها الشافعي: الاستصحاب وقد أخذ به أبي حنيفة في الدفع لا في الإثبات<sup>(١)</sup>.

## مفهوم الاستصحاب

والاستصحاب في اللغة الدعوة إلى الصحة والملازمة.

وفي اصطلاح الفقهاء الاستصحاب أحد منابع الأحكام الاجتهادية، وهو استبقاء الحكم الثابت في الزمن الماضي على ما كان عليه حتى يقوم دليل على تغييره، فإذا سئل المجتهد عن حكم عقد من العقود، ولم يجد دليلاً على شرعيته حكم بإباحته، لأن الأصل في الأشياء الإباحة، فمثلاً إذا توضحاً المسلم ثم شك في انتفاض الوضوء بقي له

(١) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي د/ مصطفى السباعي ص ٤٠٠.

حكم المتوضىء استصحابا لما ثبت من قبل ييقين، واليقين لا يزول بالشك، قال الأسنوى فى شرحه على منهاج البيضاوى وهما من علماء الشافعية - الاستصحاب: هو الحكم بثبوت أمر فى الزمن الثانى بناء على ثبوتة فى الزمن الاول، كاستدلال الشافعية على أن الخارج من غير السيلين لا ينقض الوضوء بأن الشخص كان على الوضوء قبل خروجه إجماعا، فبقى على ما كان عليه<sup>(١)</sup>.

### مؤلفات الشافعى فى الحديث

ولم ينقل عن الشافعى كتاب مستقل فى الحديث إلا «مسنده» رواية أبى العباس الأصم «وسنن الشافعى» رواية الطحاوى، ويظهر أنه من استخراج تلاميذه لا من تأليفه. وقد جاء فى كشف الظنون تعليق على مسند الشافعى جاء فيه:

مسند الشافعى - المتوفى سنة ٢٠٤ - رتبته الأمير سنجر بن عبد الله علم الدين الجاولى المتوفى فى سنة خمس وأربعين وسبعمائة، وشرحه فى مجلدات.

وشرحه أيضا أبو السعادات المبارك بن محمد المعروف بابن الأثير الجزرى المتوفى سنة ست وستمائة وسماه: كتاب «شافى العمى» فى شرح مسند الشافعى فى خمسة مجلدات.

وانتخبه الشيخ زين الدين عمر بن أحمد الشماع الحلبي وسماه، «المنتخب المرضى من مسند الشافعى».

وجمع مسنده أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف الأصم الشافعى المتوفى سنة ست وأربعين وثلاثمائة.

وشرحه الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن محمد القزوينى الرافعى عقب الشرح الكبير، وتوفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

(١) الموسوعة الذهبية ٤ / ٢٦٠.

## وفاته رضى الله عنه

مرض رحمه الله بالبواسير، وكان يعانى من تعصب بعض أتباع المالكية وتآمرهم عند الحكام، وأمره المأمون بتولى القضاء فدعى الشافعى على نفسه بالموت.  
وقالوا أن أحد الناس ضربه بحديدة على رأسه.

وكان الشافعى على مرض أرسل إلى السيدة نفيسة رضى الله عنها لتدعو له فكان يبرئ من مرضه ببركة دعائها رضى الله عنها.

وكانت وفاة الشافعى عليه السلام يوم الجمعة آخر يوم فى رجب سنة أربع ومائتين، ودفن بعد العصر فلم يوحه بالقرانة الصغرى، قال الربيع بن سليمان: رأيت الشافعى فى المنام بعد موته فقلت:

يا أبا عبد الله ما صنع الله بك؟

فقال: أجلسنى على كرسى من ذهب ونثر على اللؤلؤ الرطب<sup>(١)</sup>.

رحمه الله ورضى عنه.

(١) وفيات الأعيان لابن خلمان ٢ / ٢١٤.

## الفهرس

5	كلمة الناشر
7	المقدمة
	<b>الفصل الأول</b>
11	الإمام الشافعى
18	أم الشافعى
22	إقباله على التعليم
23	نصيه من اللعب
24	منهج التعليم
25	علم الرواية
29	من شعر عبيد الله بن عتبة وأخباره
30	ومن شعر أبى ذؤيب الهذلى وأخباره
31	والدهر ليس بمعتب من يجزع
32	من هو الأصمعى؟
34	لماذا شعر هذيل؟

35 ..... الشافعي أستاذ الأصمعي

36 ..... من هو الشنفرى؟

37 ..... شعر الشنفرى

## الفصل الثانى

39 ..... فى ميدان الفقه

41 ..... من الذى لفت نظره؟

43 ..... شيوخه فى الفقه

43 ..... رحلته إلى مالك

48 ..... نجابة الشافعي

49 ..... الشافعي يرحل إلى الكوفة

52 ..... لقاءه بالصاحبين

58 ..... التعريف بمحمد بن الحسن

59 ..... مناظرات بينه وبين محمد بن الحسن

61 ..... تعلق محمد بن الحسن بالشافعي

## الفصل الثالث

63 ..... شيوخ آخرون للشافعي

65 ..... سفيان بن عيينة

67 ..... ومن شيوخه مسلم بن خالد الزنجي

73 ..... الشافعى ابن عصره

73 ..... ابن عباس وتفسيره لغة القرآن

### الفصل الرابع

75 ..... رحلة الشافعى

79 ..... الشافعى يرفض القضاء

80 ..... الشافعى يؤلف كتابا فى المسجد

81 ..... الشافعى فى الشام

86 ..... الشافعى يوزع ما معه

88 ..... مالك يتعرف على الشافعى

90 ..... مالك يغدق على الشافعى

91 ..... الشافعى يتوجه إلى مكة

### الفصل الخامس

95 ..... الشافعى فى اليمن

98 ..... محنة يتعرض لها

100 ..... من أسباب التآمر ضده

101 ..... بين يدى الرشيد

104 ..... الخليفة ينهر بعلم الشافعى

108 ..... الإمام السيوطى

109	مؤلفات في الفقه الشافعي
	<b>الفصل السادس</b>
133	فقه الشافعي ومؤلفاته
115	الأسس التي يقوم عليها الفقه الشافعي
116	علم أصول الفقه
118	موضوع كتاب الرسالة
120	الأسلوب الحوارى
121	من مؤلفات الشافعي
122	مفهوم الاستصحاب
123	مؤلفات الشافعي في الحديث
124	وفاته رضى الله عنه
125	الفهرس



# منتدی سور الأزبکیه

[WWW.BOOKS4ALL.NET](http://WWW.BOOKS4ALL.NET)